الرياض

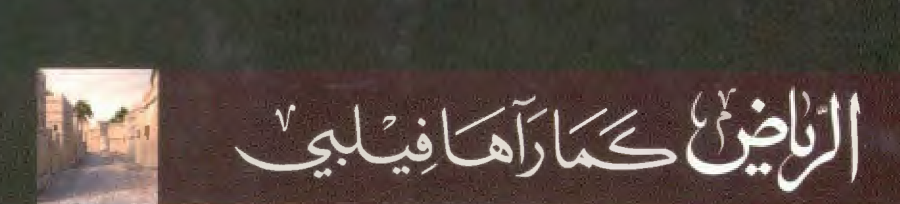
كما رآها فيلبي

ترجمة وتقديم

د. محمد بن عبدالله آل زلفة







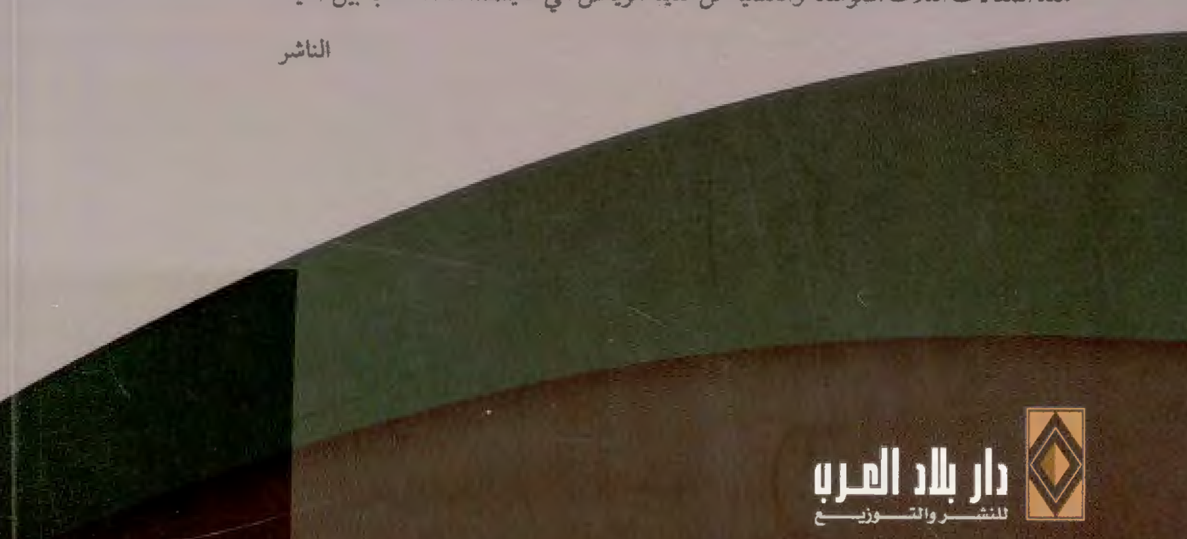
يعد ما كتبه الرحالة والسياسي البريطاني السيد فيلبي والذي عُرف في الجزيرة العربية بالسيد عبدالله فيلبي وهو ثالث أوروبي يزور الرياض عام 1917 م بعد ابني جلدته الرحالة الشهير ويليام بلجريف الذي زارها عام 1862هـ والسياسي لويس بلي المقيم البريطاني في منطقة الخليج الذي كانت زيارته لها عام 1865م .

وكان بلجريف أول أوروبي تطأ قدماه عاصمة إمارة نجد، وأول من كتب عنها مفصلاً خلال فترة زيارته لها. إلا أن فيلبي الذي عشق الرياض واتخذها مقراً لإقامته خلال العقود الأخيرة من حياته كتب عنها بحب كما لم يكتبه غيره عنها حتى الآن.

كتب عن الرياض مقالته الأولى عام 1917م ، وهي في ظروف لم تختلف كثيراً عما كتبه عنها سلفه بلجريف بعد منتصف القرن التاسع عشر بقليل، ثم كتب عنها مقالة أخرى بمسمى ملكة الصحراء حينما أصبحت عاصمة للجزء الأكبر من الجزيرة العربية، المملكة العربية السعودية. ثم ختم ما كتبه عن الرياض بمقالة كتبها قبل وفاته بفترة قصيرة تحت عنوان: الرياض بين الحاضر والماضي تحدث عن الرياض، وهي تتغير وتدخل عالم الحداثة عاصمة عصرية لدولة مدنية عصرية.

هذه المقالات الثلاث الموسعة والعلمية عن مدينة الرياض هي ما يضمه هذا الكتاب بين دفتيه.

الناشر




الرياض
كما رآها فيلبي

تنفيذ طباعي: دار الرمـــك للنشـــر
هاتف: 6827701 (012) ـ 6827968 (012)
E-mail: abufarah58@hotmail.com

الرياض

كما رآها فيلبي

ترجمة وتقديم

د. محمّد بن عبدالله آل زلفة





اسـم الكتـاب: الرياض كما رآها فيلبي

الطبعـة الثالثة: 1435 هـ ـ 2014م

النـــاشـــر

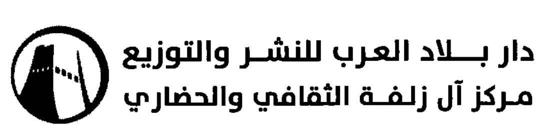
دار بـلاد العرب للنشـر والتوزيع

3159 طريق الأمير محمد بن عبد العزيز الفرعي ـ العليا
وحدة رقم (1)
الرياض: 12313 ـ 7929
المملكة العربية السعودية
هاتف: 4622449 ـ فاكس: 4620691
E-mail: arabhouse100@gmail.com

مـركز آل زلـفـة الثقافي والحضاري

المملكة العربية السعودية ـ منطقة عسير ـ أحد رفيدة
E-mail: alzulfacenter@gmail.com






بسم الله الرحمن الرحيم



المحتويات



الإهداء

أهدي هذا العمل إلى صاحب السـمو

الملكي الأمير

سلمان بن عبد العزيز

بمناسبة مرور ما يزيد عن خمسين سنة على تولّيه إمارة الرياض الذي منح الرياض العاصمة كلّ حبِّه وعشقه وجهده ووقته حتى أصبحت بحق سيّدة عرائس العواصم العربية.

دار بلاد العرب



المقدمة

لم يكتب كاتب عربي أو أوروبي عن الرياض المدينة مثل ما كتبه السياسي والرحّالة والمؤرّخ سانت جون فيلبي عبدالله فيلبي فيما بعد. ولم يكن فيلبي أوّل أوروبي تسحره الرياض فتغريه بالكتابة عنها بالشكل المكثف الذي نجده مجسداً فيما نقدمه للقارئ في هذا الكتاب.

وإنما سبقه إلى ذلك مواطنه الرحّالة وليام بلجريف الذي كان أول أوروبي ترى عيناه الرياض، وأوّل أوروبي يجعل الأوروبيين يرون الرياض بعيني بلجريف ويرسم صورة ذهنية لهذه المدينة العربية الساحرة رسخت في ذهن كل أوروبي زارها فيما بعد[1]. لقد كانت الفترة الزمنية الفاصلة بين زيارة بلجريف لمدينة الرياض في عام 1862م وزيارة فيلبي لها ولأوّل مرة عام 1917 تقارب الخمسة والخمسين عاماً.

زار الرياض خلال هذه الفترة عدد من الأوروبيين أولهم لويس بلي المقيم

(1) لمعرفة تفاصيل ما ذكره بلجريف عن الرياض انظر «الرياض في عهد الإمام فيصل بن تركي كما وصفها الرحالة بلجريف في عام 1863م ترجمة وتقديم الدكتور محمد بن عبدالله آل زلفة، مجلة التوباد، المجلد الأول، العدد الرابع، شوال 1408 يونيو 1988م.

البريطاني في الخليج، وذلك في عام 1865م. وتعد زيارته أوّل زيارة يقوم بها مسؤول بريطاني إلى عاصمة مملكة نجد.

وقام بعده مغامر شاب من الدنمارك لم يتجاوز عمره حين زيارته لها عام 1912م الحادية والعشرين من عمره. ثم السياسي البريطاني ليتشمان في مهمة استخبارية، والتقط لها صوراً ربما تكون الأقدم عام 1912م وقدّم وصفاً للعاصمة لكنه يظل مقتضباً. ثم زارها بعد ذلك الكابتن وليم شكسبير، وهو أوّل سياسي بريطاني يزور الرياض بعد عودة الملك عبدالعزيز إليها، وذلك في شهر مارس عام 1914م.

ثم زارها سياسي بريطاني آخر يدعى هاملتون في عام 1917م قبل شهور قليلة من زيارة فيلبي لها من العام نفسه.

بيد أن أياً من هؤلاء الزوار الأجانب بين بلجريف وفيلبي لم يكتبوا عن الرياض إلا إشارات وملاحظات بعضها يكاد يكون عابراً. فالسياسيون البريطانيون قبل فيلبي لم تكن رغبة الاكتشاف من أولويات اهتمامهم، ولذا فلم يولوا هذا الجانب اهتماماً يذكر.

أما المغامر الدنماركي الشاب، فلم يمكث في الرياض أكثر من ثمان وأربعين ساعة، وكانت قصته إلى المأساوية أكثر من قدرة شاب في مثل سنّه على التحمّل، مع أنه كان يأمل أن يكون في مصاف الرواد الأوائل المكتشفين لجزيرة العرب، وفي مقدمتهم الرحّالة الشهير كارستن نيبور الذي زار الجزيرة العربية في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي بتكليف من ملك الدنمارك. لعل باركلي رونكيير الذي كان متأثراً برحلة كاريستن نيبور قد حاول أن يكون أوّل دنماركي بل أوروبي يكتشف المناطق الكائنة إلى الجنوب من مدينة الرياض. لكن حلمه لم يتحقق لظروف منها ما يتعلق بصحّته التي أخذت في التدهور منذ بداية الرحلة التي أجبرته على العودة إلى ساحل الخليج العربي عن طريق

الأحساء، بعد أن زوّده الإمام عبدالرحمن آل فيصل والد الملك عبدالعزيز براحلة، وكلف بعض رجال قافلة كانت في طريقها من الرياض إلى الأحساء بتقديم كل عون وحماية له[1].

كان هذا الشاب متشوقاً إلى مقابلة الملك عبدالعزيز الذي كانت أخباره تملأ الجزيرة العربية وانتصاراته على خصومه حديث كل الناس، لكن ذلك الحلم لم يتحقق إذ كان الملك عبدالعزيز غائباً عن عاصمة بلاده، للقضاء على بعض خصومه[2]. أثناء وصول هذا الرحّالة إليها.

أما فيلبي الذي زار الرياض لأول مرة في مهمة سياسية، وذلك في يوم 30 نوفمبر 1917م، ومكث بها سبعين يوماً[3] وهي أطول مدة يمكثها سياسي بريطاني وأطول مدة يمكثها أجنبي أوروبي في الرياض على وجه العموم، فما أعتقد أنه كان يدور في خلده أن تنشأ بينه وبين هذه العاصمة هذه العلاقة التي امتدت طوال ثلاثة وأربعين عاماً.

لم يكن شغف فيلبي بالرياض أكثر من التأثير السحري الذي تركه في نفسه صاحب الرياض الملك عبدالعزيز، وظلّ ذلك التأثير متوهجاً في نفسه منذ أن عرف الملك عبدالعزيز لأوّل مرة، وظل إلى حين وفاة الملك عبدالعزيز في عام 1953م. انعكس إعجاب فيلبي غير المحدود بشخصية الملك عبدالعزيز على مستقبل حياته السياسي، فضحّى بمستقبله بوصفه واحداً من أذكى الساسة البريطانيين وأمهرهم في المنطقة على الإطلاق، وذلك في سبيل إخلاصه وإعجابه وحبه للملك عبدالعزيز، وبالتالي انعكست على توظيف قدراته

---

(1) انظر تفاصيل رحلة هذا الشاب الدنمركي باركلي رونكيير التي نقلها إلى اللغة العربية منصور محمد الخريجي تحت عنوان «عبر الجزيرة العربية على ظهر جمل»، مكتبة العبيكان 1419/ 1999م.

(2) المصدر السابق ص 173.

(3) عن تفاصيل مهمته انظر تقريره عن تلك المهمة بعنوان بعثة إلى نجد 1336 ـ 1337/ 1917 ـ 1918م. ترجمة الدكتور عبدالله العثيمين، مكتبة العبيكان، 1418/ 1997م.

الإبداعية في الكتابة وجسارته في تجشّم المشاق وتحمّل الصعاب في رحلات استكشافية شملت كل نقطة من أرجاء البلاد التي بسط عليها الملك عبدالعزيز سلطته، خلف على أثرها فيلبي مكتبة متكاملة عن الجزيرة العربية في التاريخ والجغرافيا والآثار والجيولوجيا وعلم النبات والحيوان والإدارة والاقتصاد والسياسة.

أصبحت هذه المؤلفات المعين لكل باحث في أي حقل من حقول المعرفة المتعلقة بالجزيرة العربية. إن الحديث عن أعمال فيلبي يطول ويطول فمنها ما هو مطبوع، ومنها ما زال مخطوطاً، ومنها ما هو معلوم ومنها ما غيّبه الإهمال أو أيادي العبث، ولكن ما ترجم منها إلى اللغة العربية يعد قليلاً جداً. والتقصير في ترجمة أعماله إلى اللغة العربية حرم كثيراً من الباحثين العرب الذين يجدون صعوبة في معرفة اللغة التي كُتبت بها كل أعمال فيلبي أو صعوبة في الحصول على كتبه التي طبعت في أوقات مبكرة من هذا القرن، وأصبحت في عداد الكتب النادرة، أو أوراقه التي ذهب معظمها إلى بعض المراكز البحثية في الجامعات البريطانية والأمريكية ـ من تنمية معرفتهم بدقائق الأوضاع في الجزيرة العربية، كما كتبها فيلبي الذي لا يضاهيه فيما كتب من حيث الكم والشمولية أي كاتب آخر.

ولذا فقد اقتصرت فيما سأقدمه للقارئ في بلادي بشكل خاص، وللقارئ العربي بشكل عام على ما كتبه عبدالله فيلبي عن مدينة الرياض عاصمة الدولة السعودية، أو ملكة الصحراء كما يسميها فيلبي. ومع أنه لا يكاد يخلو كتاب أو مقالة مما ألّفه أو كتبه فيلبي إلا وللرياض فيه ذكر، لكنه خص هذه المدينة التي أحبها بوصف خاص في كتابين من كتبه، وبمقالة مستقلة، وعلى فترات تاريخية وكأنه بذلك قد عمد إلى رصد تطور المدينة التاريخي والعمراني والحضاري حسب التطور السياسي والاقتصادي للبلاد التي هي عاصمتها وانعكاسات هذه التطورات الأخيرة على تطور المدينة العاصمة.

أما هذه المقالات الثلاث، والتي تغطي فترات تاريخية مهمة من تطور تاريخ البلاد والعاصمة فإنها كما يأتي:

المقالة الأولى: وهي بعنوان «عاصمة الوهابيين Wahhabi Capital نشرت ضمن كتابه المُعَنْون قلب جزيرة العرب The Heart of Arabia والمنشور في لندن عام 1922م، وهو من أوائل ما كتبه عن الجزيرة العربية. وهي أوّل مقالة يقوم بها فيلبي عن مدينة الرياض خلال زيارته الأولى لها في شهر نوفمبر 1917م وقد مكنه الوقت الكافي من إقامته في المدينة الذي استمر لمدة سبعين يوماً من أن يقوم بمسح شامل للمدينة شمَلَ مساحتها وأسوارها ومبانيها ومساجدها وبساتينها وطرقاتها، وهي دراسة وصفية امتازت بالدقة إذ استخدم الآلات الحديثة في القياسات، وقياسات الاتجاهات مثل البوصلة وغيرها، مع أنه لم يستغنِ عن استخدام الوسائل التقليدية لقياس المسافات أحياناً مثل الخطوات والباع وغير ذلك.

إضافة إلى ذلك قام فيلبي بوضع خرائط جديدة لمدينة الرياض، وهي أحدث خرائط لها منذ أقدم خريطة وضعت لها من قبل الرحّالة بلجريف الذي يُعد أوّل من وضع خارطة لمدينة الرياض وخارطة لقصر الحكم فيها مع توضيح بعض التفاصيل الدقيقة للمدينة وللقصر وللمسجد الجامع الذي كان أوّل من قدم وصفاً متكاملاً له من حيث البناء وسِعة استيعابه للمصلّين.

وفيلبي بعمله المتميز هذا عن مدينة الرياض لم يكن رائداً إذ تظل الريادة لوليام بلجريف وربما هذا مما جعل فيلبي يقوم بشن هجومه على بلجريف والتشكيك في رحلته إلى عاصمة نجد. وقد ظلّ على هذا الموقف مع ما يشوب كتابات فيلبي نفسه من تناقض حول بلجريف واستمر على موقفه ذلك لآخر مقالة كتبها عن الرياض، وهي المقالة الأخيرة في هذا الكتاب.

لكن فيلبي بقي وحده المشكك في رحلة بلجريف إذ أثبتت الدراسات

عدم صحة تطرف آراء فيلبي المشككة في حقيقة وصول بلجريف إلى مدينة الرياض في عهد الإمام فيصل بن تركي. وسبق أن أشرت إلى أن تشكيك فيلبي هذا ربما كان بدافع الغيرة، ولرغبته في أن يكون صاحب الريادة في أوّل دراسة مفصلة عن عاصمة نجد.

وأياً كان الأمر، فإن فيلبي يعد رائد الكتابات المفصلة عن مدينة الرياض والمتابع بشكل دقيق ومفصل مراحل تطورها ونموها منذ السنوات الأولى لعهد الملك عبدالعزيز ـ طيب الله ثراه ـ الذي أعاد للرياض مجدها وعزها، وإلى السنوات الأخيرة من عهد الملك سعود ـ يرحمه الله ـ الذي شهدت الرياض في عهده دخولها عالم العصر الحديث.

أما المقالة الثانية: لفيلبي عن مدينة الرياض فهي بعنوان الرياض ملكة الصحراء The Queen of The Desert- Riyadh نُشرت ضمن كتابات فيلبي المعنون «حاج في بلاد العرب» Pilgrim in Arabia طُبع في لندن الطبعة الثانية عام 1946م.

كتبت هذه المقالة أو الدراسة المطولة في عام 1931م. ولم يقتصر الحديث فيها على مدينة الرياض، وإنما كان حديثاً شاملاً عن تطور مجريات الأحداث في المملكة، وعن شخصية الملك وعن الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي مرّت بها البلاد خلال تلك الفترة وانعكاساتها على ما سواها من الأحداث. وتحدث عن الحكومة وجهازها الإداري، وعدم رضا الملك عن أداء ذلك الجهاز في ظل التطورات السياسية المحلية والعربية والدولية التي أصبحت المملكة ممثلة في شخص قائدها جزءاً فاعلاً في التفاعل مع تلك التطورات المتسارعة، في الوقت الذي ظل الجهاز الإداري وبقيادته التنفيذية على وضعهم التقليدي في تسيير الأمور، وعدم التفاعل مع المستجدات بما يتناسب مع ظروف المرحلة، وترك كل الأمور على كاهل الملك في اتخاذ كل القرارات تجاه كل

القضايا، ولم يكن ذلك الجهاز يملك القدرة في إبداء الرأي والمشورة بالشكل الذي يخفف عن كاهل الملك كثيراً من همومه المرتبطة بهموم أمته ووطنه. وقد قدم فيلبي لأولئك المحيطين بالملك صورة حية تعكس طبيعة كل من أولئك المستشارين وسلوكهم.

قدم فيلبي وصفاً كاملاً لحياة الملك الخاصة في عاصمة ملكه، وجدولاً يومياً دقيقاً لعمل الملك منذ ساعات الفجر الأولى، وإلى حين ذهابه للنوم. وهذه الجزئية من حياة الملك عبدالعزيز التي قدمها فيلبي تعد من أندر ما كتب عن هذا الجانب في حياة الملك يرحمه الله.

كما قدم وصفاً شيقاً لحياة القصر، والحياة الأسرية للملك عبدالعزيز إضافة إلى ما قدمه عن المدينة وضواحيها وبساتينها ومساجدها وقصورها ومقابرها، وحياة الناس الخاصة والعامة فيها.

أما المقالة الثالثة والأخيرة: التي كتبها عبدالله فيلبي عن مدينة الرياض فهي مقالة شيقة نشرها في مجلة الشرق الأوسط المجلد الثالث عشر ربيع 1959م. بعنوان «الرياض بين الحاضر والماضي».

وهي آخر مقالة أو دراسة كتبها فيلبي عن هذه المدينة التي أحبها، وقضى بها سنوات طويلة من حياته، شهدها وهي تخرج من أسوارها، وتتوسع في مساحتها، وتدخل إليها الوسائل العصرية، وتتبنى أنماطاً معمارية مختلفة غير ما ألفتها على مدى تاريخها. ويزحف البناء على حساب المزارع والبساتين لمواجهة النمو المتزايد في عدد سكانها، وتشهد تطوراً عمرانياً حديثاً لاستيعاب المباني الحكومية الضخمة، وذلك بعد أن تطورت الإدارة، وتحولت من إدارات تقليدية في شكلها وفي أدائها قبل استحداث مجلس الوزراء وتشكيل الوزارات الحديثة، ونقلها إلى العاصمة الرياض، ورغبة القيادة السياسية في أن تكون الرياض عاصمة عصرية بها كل مقومات المدينة الحديثة. ساعد على قيام كل هذا عوامل عدة: أولها عقلية الملك عبدالعزيز المتفتحة المتمثلة في رغبته أن

يخرج عاصمة بلاده من العزلة التي عاشتها عقوداً طويلة، ففي عهده تم ربطها بما حولها من المدن والعواصم بوسائل الاتصالات الحديثة مثل الهاتف ثم بناء مطار في عاصمة الصحراء لأوّل مرة، ثم توج انفتاحها على الخليج العربي بواسطة سكة حديد هي الأولى والوحيدة في المملكة بفضل عقلية هذه الشخصية الفذة الذي سبق زمانه في قوة التحدي والتغلب على الصعاب والطموح الذي لا حدود له، وهي صفات لا يملكها إلا القادة المؤسسون الكبار، وعبدالعزيز هو طراز من «نسيج وحده» وضع الأسس وأنار بنور عقليته المتفتحة الطريق لمن خلفه من أولاده.

أما العمل الثاني فهو تدفق عوائد البترول في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ومساهمتها في بناء العاصمة وتحديثها.

أما العمل الثالث فهو رغبة القيادة السعودية الجديدة بزعامة الملك سعود الذي كان لأسفاره إلى كثير من بلدان العالم التأثير الكبير على تطلعاته بأن يرى عاصمة بلاده وقد بلغت مصاف العواصم الحديثة، فقاد مسيرة التطوير بشكل مذهل وتغيرت خارطة المدينة الحضارية وانتقل سكانها من حياة الجماعة Community إلى حياة المجتمع Society، وأصبحت عاصمة تستقطب فئات سكانية مختلفة تنتمي إلى خلفيات ثقافية واجتماعية مختلفة أيضاً، وأصبحت عاصمة بكل مواصفات المدينة العصرية، فأُسست بها مدينة طبية كبيرة هي مجمع مستشفى الشميسي ليحل محل المستوصف الوحيد القديم. وخرجت من إطار التعليم التقليدي إلى عصر التعليم الجامعي إذ أسست بها جامعة الملك سعود عام 1377هـ/ 1957م أوّل جامعة في المملكة وكلية الملك عبدالعزيز الحربية فأصبحت مدينة استقطاب يؤمها كل طالب علم أو رزق أو طالب استشفاء. وتوسع إطار نطاقها العمراني بشكل لا يضاهيه إلا ما شهدته مع بداية منتصف السبعينات الميلادية. أو ما يسمى بعصر الطفرة الاقتصادية في عهد الملك خالد بن عبدالعزيز.

ولكن رغم كل ما شهدته المدينة من توسع في العمران ومن تطور في البناء الحضاري وتنوع وتغير في النسيج الاجتماعي، فقد ظلت محافظة على الثوابت التي قامت عليها متمسكة بالقيم الاجتماعية المتوارثة والأخلاق العربية والإسلامية المتأصلة في نفوس سكانها.

إن هذه المقالات الثلاث التي كتبها عبدالله فيلبي عن مدينة الرياض وفي فترات ثلاث مختلفة من تاريخ هذه المدينة، قبل عصر انفتاحها الكبير الذي شهدته في منتصف السبعينات الميلادية من هذا القرن تعد من أوفى ما كُتب عنها، ولهذا فقد تم اختيارها من بين العديد من المشاهدات والملاحظات التي كتبها عدد من الرحّالة والزوار الأجانب. ويأتي في الأهمية من بين هؤلاء والمعاصرين لعبدالله فيلبي الرحّالة والكاتب العربي الكبير أمين الريحاني الذي خص مدينة الرياض بفصلين ممتعين ضمنهما كتابه عن تاريخ نجد الحديث وباني الدولة السعودية الحديثة في طبعته الإنجليزية الأولى عام 1928م. ولما يمثله هذان الفصلان من الأهمية في تاريخ الرياض فقد قمت بترجمتهما وسيران النور قريباً بإذن الله.

عن عبدالله فيلبي[1]:

نظراً لما احتله السيد فيلبي من معرفة واسعة من قبل كل الدارسين الذين اهتموا بدراسات الجزيرة العربية الحديثة، والمملكة العربية السعودية منها بشكل خاص منذ قيامها على يد معيد بنائها ومؤسس كيانها الحديث الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه ـ فما كنت سأعرف بفيلبي وهو الشخصية المعروفة ولكن ضرورات الحال تقتضي أن آتي ولو بشكل موجز عن حياة هذا الرحّالة والسياسي والأديب والمكتشف والمستعرب.

(1) ولمعرفة المزيد عن حياة فيلبي انظر اليزابيث مونرو Elizabeth Monroe في كتابها Philly of Arabia المطبوع في لندن عام 1973م الذي يعد أدق وأوسع ما كتب عن حياة فيلبي بشكل علمي وأكاديمي رصين.

ولد فيلبي في سيلان (سيرلانكا حالياً) عام 1885م، واسمه الكامل هاري سانت جون بريدجر فيلبي. وينتمي إلى أسرة إنجليزية مشهورة برز منها عدد من القيادات التي ساهمت بصورة أو بأخرى في تقوية التاج البريطاني ونفوذه. وبرز منهم في الوقت نفسه عدد ممن يملكون رأياً مستقلاً بلغ في ارتفاع صوته درجة التضاد من مصلحة التاج البريطاني، مثل موقف أحد أجداده لأمه الذي وقف منادياً بحق أمريكا الشمالية في التحرر من هيمنة التاج البريطاني. ونرى هذه المواقف تنسحب بالوراثة على مواقف فيلبي من سياسة بلاده تجاه العرب في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

عاد فيلبي مع والدته إلى إنجلترا، حيث دخل مدرسة وستمنستر الخاصة بأبناء علية القوم. في هذه المدرسة وفي هذا السن المبكر لفيلبي بدت عليه علامات النبوغ والتفوق والاعتزاز بالشخصية والقدرة الجدلية والتفرد بالرأي.

في عام 1904م التحق بكلية ترينتي Trinity بجامعة كمبريدج الشهيرة، حيث أصبح واحداً من أبرز طلابها وأكثرهم شهرة في الإعلان عن آرائه الليبرالية وتفوقه في التحصيل الأكاديمي، وقدرته الفائقة في تعلم اللغات الأوروبية والآسيوية مما جعله مؤهلاً لأن يحتل مكاناً قيادياً في خدمة التاج، وفي حكومة الهند البريطانية حيث تعلم في الجامعة نفسها ولمدة سنة كاملة اللغتين الفارسية والهندية لكي يكون مؤهلاً للقيام بوظيفته على أتم وجه.

عمل في الهند مدة سبع سنوات أتقن خلالها اللغة البنجابية والأوردية وتعلم القرآن الكريم واللغة العربية بوصفها ضرورة من ضرورات عمله ورغبته في فهم حياة المجتمع الذي يعمل فيه. مكنته هذه الخبرة وما اكتسبه من ثقافة وما امتاز به من تفان وإتقان في مجال كل الأعمال التي أوكلت إليه من أن يؤدي دوراً مهماً في مطلع الحرب العالمية الأولى، ولكن ليس على الساحة الهندية، بل في منطقة الخليج الذي هو امتداد للنفوذ الإداري لحكومة الهند. وذلك أثناء المواجهات الحاسمة بين بريطانيا والدولة العثمانية في منطقة الخليج والعراق

إبان اندلاع الحرب العالمية الأولى حيث أدى فيلبي دوراً حاسماً خلال هذه الفترة أهله لهذا الدور معرفته باللغة العربية والفارسية ومهاراته الإدارية وحدة ذكائه في التعامل مع المواقف وسعة ثقافته بأحوال المنطقة وتاريخها.

وصل إلى البصرة في شهر نوفمبر 1915م، وتولى عدداً من المهام السياسية والإدارية تحت قيادة بيرسي كوكس حتى وصل في منتصف عام 1917م إلى منصب مساعد شخصي لبرسي كوكس الذي أصبح حاكماً لبغداد.

في شهر أكتوبر من عام 1917م كُلف بأول مهمة من قبل حكومة بغداد البريطانية إلى الملك عبدالعزيز، ومن هنا بدأت العلاقة الوثيقة بين فيلبي وعبدالعزيز.

عاد فيلبي إلى بغداد بعد أداء مهمته. حيث أُعلن هناك موقفه الرافض للسياسة البريطانية الرامية إلى احتلال العراق، وإقامة حكومة بريطانية بها عكس ما كانت قد وعدت به الشعب العراقي، وكان هذا الموقف سبباً كافياً لأن يترك بغداد ذاهباً إلى لندن تعبيراً عن موقفه الرافض لهذه السياسة.

في لندن أشرك السيد كيرزون وزير الخارجية البريطانية بالنيابة السيد فيلبي في لجنة لمناقشة تطورات الأوضاع في الجزيرة العربية وذلك في الوقت الذي بلغت فيه حالة التوتر مداها بين الملك عبدالعزيز والشريف حسين حول واحتي تربة والخرمة عام 1918م وكان تطور هذه الأحداث مما يشغل بال الساسة البريطانيين في لندن المائلين بعواطفهم إلى الشريف حسين، فسأل كيرزون فيلبي رأيه حيال هذه التطورات، فكان جوابه، وهو الخبير بحقيقة الأوضاع والواضح والصريح في رأيه، بأنه في إمكان ابن سعود أن يدخل مكة متى أراد. فنظر إلى رأي فيلبي بشيء من الاستهجان، بل السخرية، ولم يمض أكثر من شهرين حتى وقعت معركة تربة المشهورة وهُزمت فيها قوات الحسين هزيمة ماحقة.

وما أن وصلت أخبارها إلى لندن حتى سارع كيرزون إلى استدعاء فيلبي وكلفه بمهمة عاجلة إلى الجزيرة العربية في محاولة إقناع الملك عبدالعزيز

وأتباعه بعدم الاستيلاء على الحجاز. ولأهمية المهمة أرسل بالطائرة من لندن إلى القاهرة. لكن الملك عبدالعزيز كان بدوره يملك الحكمة والرؤية ما جعله يمنع أتباعه من الإقدام على مثل هذه الخطوة في هذا الظرف بالذات بعد أن أصبحت الرسالة من معركة تربة واضحة لكل الأطراف ذات الاهتمام.

عاد فيلبي أدراجه من القاهرة إلى لندن، حيث صادف في عام 1919م زيارة الأمير فيصل بن عبدالعزيز لأوّل مرة، وعين فيلبي مرافقاً له أثناء تلك الزيارة.

في عام 1920م تأزم الموقف في العراق، وأصبحت البلاد مقبلة على ثورة، فأرسلت الحكومة البريطانية بيرسي كوكس ليحل محل أرنولد ولسون الذي تأزمت الظروف تحت إدارته، واختار كوكس فيلبي للذهاب معه للعراق، وتم تشكيل مجلس وزراء من العراقيين، وعين فيلبي مستشاراً للسيد طالب النقيب الذي عين وزيراً للداخلية، ثم ما لبثت بريطانيا أن قررت تعيين فيصل بن الحسين ملكاً على العراق.

أبدى فيلبي موقفاً رافضاً لتعيين فيصل ملكاً للعراق بل نادى بإجراء انتخابات حرة، وإقامة نظام جمهوري في العراق، فأدى موقفه الليبرالي هذا إلى إبعاده من العراق.

في عام 1921م عُين فيلبي مندوباً أو ممثلاً لبريطانيا لدى أمير شرق الأردن الأمير عبدالله بن الحسين الذي أسس بمساعدة بريطانيا إمارة شرق الأردن. لكن سرعان ما دخل فيلبي في خلاف مع السير هربرت صموئيل المندوب السامي البريطاني في فلسطين المعروف بتحيزه الكامل للصهيونية حول تنفيذ سياسته المنحازة ضد المصالح العربية. أدت هذه الخلافات إلى استقالة فيلبي عن عمله السياسي، وعاد إلى لندن، حيث أخذ يكتب المقالات ويلقي بالتصريحات يفضح فيها سياسة بلاده المنحازة ضد العرب، فذاعت شهرته وارتفع عدد خصومه في صفوف الساسة البريطانيين المعروفين بمواقفهم المنحازة ضد العرب.

في عام 1924م قدم إلى جدة وذلك أثناء حصارها من قبل قوات الملك عبدالعزيز، وحاول أن يقوم بدور الوسيط بين أطراف النزاع، ولكن الأمر حُسم في النهاية لصالح الملك عبدالعزيز.

ومنذ أن أكمل الملك عبدالعزيز توحيد بلاده اختار فيلبي هذه البلاد لـه موطناً. وفي عام 1930م أعلن إسلامه وظل في هذه البلاد بقية سنوات حياته يعمل في التجارة تارة وفي رحلات الاستكشاف تارات، وفي خدمة الملك عبدالعزيز أحياناً، وظل كذلك محباً مخلصاً لهذه البلاد إلى أن وافاه الأجل المحتوم وهو في لبنان عام 1960م عن عمر يناهز الخامسة والسبعين، ودفن في مقبرة المسلمين هناك.

ألف عن هذه البلاد ما لم يؤلفه غيره، وله أسرة وأبناء ما زالوا يقيمون في هذه البلاد ومن رعاياها.

بعد كل هذا لابد من القول: إن فيلبي مثله مثل غيره من البشر يخطئ ويصيب ويسوق من الآراء ما يعبر فيها عن وجهة نظره منها ما لا نتفق معه فيها ولكنها تظل وجهات نظر من حقنا أن نختلف معه فيها ولكن ليس من حقنا أن نصادرها، لكونها لا تتفق مع وجهات نظرنا.

ثم إن فيلبي مهما كان صادقاً ومحباً ومخلصاً لهذه البلاد ولمؤسسها، فإنه وبحكم انتمائه إلى ثقافة مختلفة تربى ونشأ عليها، فإنه ومن هذه المنطلقات قد تظهر في لغته الوضوح، وفي رأيه الصراحة، وفي نقده الموضوعية. وهي صفات لم يتعود عليها كثير من الكتاب العرب إن لم يكن أغلبهم الذين تغلب على كتاباتهم العاطفة البالغة في التطرف إما حباً ومدحاً يصل بصاحبه إلى السموات أو كرهاً يجرده من كل ميزة ولا شيء بينهما وفي مثل هذه الأجواء تطير الموضوعية وتفتقد. ولهذا فإننا نلمس في ما كتبه فيلبي عن الرياض وما تطرق له من مواضيع أخرى لغة مختلفة وطرحاً مختلفاً كان يضيق ببعض طروحاته أولئك الذين لم يتعودوا على سماع لغة غير لغة أنفسهم.

ولكن كان يكفي فيلبي فخراً بأن الملك عبدالعزيز كان أكثر الناس فهماً وتقديراً وقبولاً لآرائه بما فيها من وضوح وصراحة، وكان الملك عبدالعزيز أكثر القوم جدلاً ومناقشة لفيلبي ولآرائه وكثيراً ما تراجع فيلبي عن بعض مواقفه أمام قوة الحجة والمنطق والفهم والإدراك للقضايا التي كان يناقشها مع الملك عبدالعزيز.

ولم يكن الملك عبدالعزيز يتضايق من آراء فيلبي وطروحاته التي لا يتردد في طرحها بصراحة، بينما كان القوم يتميزون غيظاً من جرأة فيلبي في حواراته ومناقشاته مع جلالة الملك. ومواقف هؤلاء لا تعكس إطلاقاً ما امتاز به الملك عبدالعزيز من ترحيب بكل رأي بناء يطرحه صاحب رأي وعلم ومعرفة، صادقاً خالياً من الهوى.

ومما لا شك فيه أن الله قد هيأ للملك عبدالعزيز يرحمه الله الكثير والكثير من الرجال من أبناء هذه البلاد الذين صدقوه وصدقوه وأخلصوا لـه وتفانوا في خدمته متناسين ذواتهم مضحين بكل غال ونفيس في سبيل قائد أعطى كل حياته لأمته وشعبه.

وإنني لعلى ثقة بأن ما نقدمه للقارئ الكريم بين طيات هذا الكتاب سيضيف إلى معرفته جوانب من تاريخ فترة التأسيس نحن جميعاً في أمس الحاجة إلى معرفتها، لكي نعرف كيف كان الذين من قبلنا وكيف كانت ظروف حياتهم، وكيف أصبحنا وكيف أصبحت ظروف حياتنا المعاصرة. إن في التاريخ لعظة.

ويسرني :

وبمناسبة الاحتفال بالمئوية الأولى على تأسيس المملكة الذي تسابق الكُتَّاب والمؤلفون والشعراء في إبراز هذا الحدث المهم، الذي يعتبر من أبرز الأحداث الكبرى في تاريخ الجزيرة العربية أن أقدم هذا العمل إلى جانب أعمال أخرى احتفالاً بهذه المناسبة الخالدة. وآثرت أن يكون أوّل هذه الأعمال خروجاً

إلى النور هذه النصوص المترجمة كاملة كما كتبها فيلبي عن مدينة الرياض، جازماً بأنها أوفى ما كُتب عن هذه المدينة التي هي مسرح أهم وأول حدث في مسيرة إعادة بناء الدولة والمرتكز الذي عليه وضعت اللبنة الأولى في بناء الوحدة الوطنية الشاملة والعاصمة التي انطلقت منها قوافل التوحيد تعلي بناء تلك الوحدة الوطنية وتكملها[1].

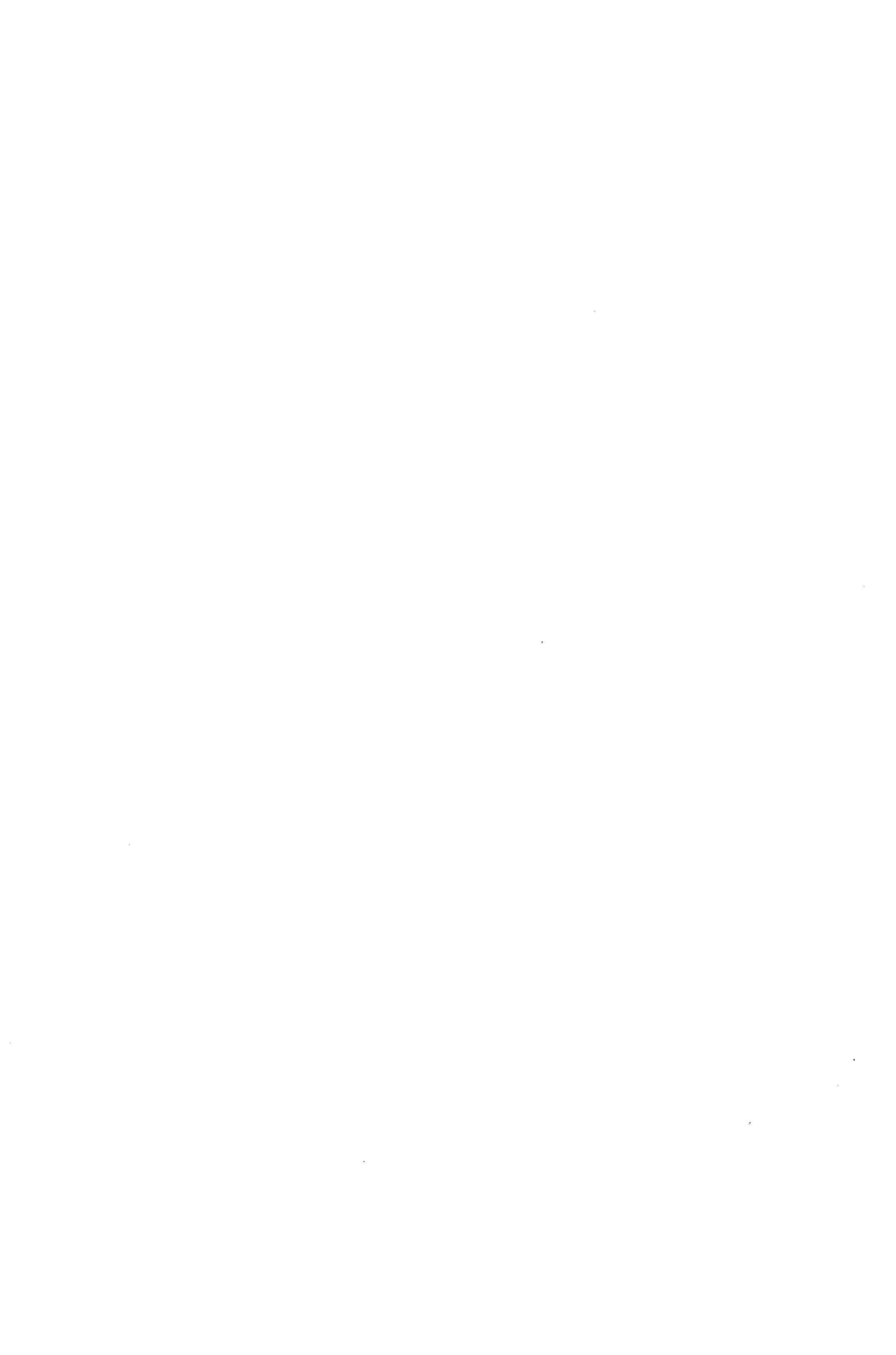
د. محمد بن عبدالله آل زلفة

(1) كان هذا الكتاب معد للنشر منذ إحتفال المملكة بالمؤية قبل أكثر من إثنتي عشر سنة ولكن ظروف مختلفة حالت دون خروجه حينذاك، وهذا هو حان الوقت لخروجه. المحرر.



الفصل الأول

الرياض عاصمة الوهابيين
عام 1917 ـ 1918 م
1336 ـ 1337 هـ



الرياض عاصمة الوهابيين[1]

1 ـ وصول الرياض:

أثناء وقوفنا مترجلين على قمة التلة، ونحن نحدق في تفاصيل المشهد الماثل أمامنا، قدم نحونا ثلاثة فرسان على ظهور خيولهم وهم يعدون صاعدين إلى أعلى التلة. وعند وصولهم إلينا وثبوا على الأرض برشاقة، واقتربوا منا مرحبين بنا في الرياض. وكان أحدهم هو (عائض) الذي تقدم نحونا والذي قام الآن بتقديم رفاقه لنا، وأحدهم كان من عبيد الأسرة المالكة ويدعى (سعيد)، أما الآخر فكان هو المتحدث باسم المجموعة، وهو (إبراهيم بن جميعه) رئيس التشريفات لدى ابن سعود ونقيب الحرس، والذي شعرت تجاهه بكراهية غريزية قوية منذ النظرة الأولى، وقد قدر لي أن أصبح خلال الأشهر القادمة على علاقة وثيقة ازدادت فيها كراهيتي الفطرية لـه نمواً في كل يوم من أيام صحبتي لـه، إلى أن خلَّصت نفسي بعد أكثر من ستة أشهر لاحقاً من كابوس صحبته بقطع مفتوح

---

(1) نشر هذا الموضوع في كتاب The Heart of Arabia «قلب جزيرة العرب» الذي ألفه هـ. سانت ج. فيلبي. ونشره في لندن عام 1922م. وهذا النص المترجم الخاص بالرياض جاء به في الفصل الثالث من الكتاب بعنوان: «عاصمة الوهابيين Wahhabi Capital» ويقع في الصفحات من 62 ـ 79 من الكتاب.

للعلاقات وسوف يدرك القارئ من خلال مطالعته الفاحصة لهذه الصفحات السر في ملازمته القريبة لنا، وسوف يحكم بيننا من خلال تقدم روايتي، لأنه لم يكن يحمل قط ترحيب ابن سعود.

بعد تبادل عبارات التحية التقليدية الرسمية ركبنا جميعاً وهبطنا ببطء من الجبل ونحن في طريقنا إلى بساتين النخيل، وكان إبراهيم يبدو شخصية مهيبة في حلته الزاهية وهو يمتطي جواده الصغير المستولد مع السلالة العربية، وكان يسير بمحاذاتي، ويبادلني الأخبار والمجاملات. وفي منتصف طريق هبوطنا من المنحدر كانت هناك مجموعة من الأعراب بانتظار وصولنا، وكانت رواحلهم تقف إلى جانبهم. وعند وصولنا إليهم نهض قائدهم وتقدم لتحيتنا، وقد تعرفنا في شخصه على الكولونيل هاملتون، المندوب السياسي في الكويت، والذي وصل إلى الرياض عن طريق القصيم قبل حوالي ثلاثة أسابيع من قدومنا.

وبعد أن التأم جمعنا في طريقنا إلى طرف حزام بساتين النخيل، حيث صدرت صيحة بالتوقف انتظاراً لفتح بوابات المدينة، حيث كان اليوم هو يوم الجمعة وكان الوقت عند منتصف النهار وكان كافة سكان المدينة من الرجال، أعلاهم وأدناهم، مجتمعين في المسجد الكبير لأداء صلاة الجمعة الأسبوعية، وكانت كافة البوابات مغلقة أمام حركة الدخول أو الخروج.

ترجلنا على طريق ترابي يوصل ما بين بساتين النخيل المسورة وجلسنا كي ننتظر تحت ظل أحد أسوار الحدائق العالية إلى أن يتضح المنحدر. في هذه الأثناء كانت أصوات السواني التي تمتح الماء من إحدى الآبار المجاورة يضع عداً للسكون القاتلِ لهذا المشهد، وكأنه صيحة حادة صادرة من أحد المؤذنين لتنبيه العالم لصلاة لا نهاية لها.

وفجأة كانت هناك حركة بدت كالأوراق المتساقطة، وبطريقة ما علمنا أن الأبواب قد فتحت على مصراعيها. وعاودت الحياة سيرتها على نطاق العالم الذي كان يبدو ميتاً. نهضنا واقفين، وشُدت السروج وركبنا مرة أخرى. وللمرة

الثانية مررنا عبر الميدان الذي يحيط بالبساتين المسورة، ومنه ولجنا إلى داخل فضاء مكشوف لنجد أنفسنا ونحن ننظر من فوق أسوار مدينة الرياض. وقد انتشرت خيام البدو السوداء هنا وهناك قبل المدينة، وقد شققنا طريقنا وسطها إلى البوابة الشمالية.

وعبرنا البوابة وواصلنا سيرنا عبر طريق مليء بالغبار بالقرب من الحصن ذي الأبراج، وجماهير المارة القادمين من المسجد يحدقون فينا ونحن نواصل سيرنا ببطء نحو ميدان القصر الذي كان وقتها مكتظاً بالناس. وعند بوابة القصر ترجّلنا عن رواحلنا ودخلنا. أدخلنا إبراهيم عبر ممر ضيق ومزدحم، دلفنا منه إلى باحة داخلية، ثم صعدنا عبر سلم متدرج يحيط به مجموعة من العبيد المسلحين ورجال الحرس، وعبر ممر آخر كان مزدحماً أيضاً مثل سابقه، ومنه عبر دهليز مفتوح إلى الديوان الملكي[1].

تركنا أحذيتنا عند عتبة الدار ثم دخلنا إلى غرفة واسعة مربعة الشكل حيث قوبلنا بترحاب شديد من جانب رجل متوسط الطول، يميل إلى البدانة نوعاً ما، وذي ملامح حادة وعينين تشعان ذكاءً، قادنا إلى المجلس المجهز بالوسائد في إحدى جنبات الغرف بالقرب من إحدى النوافذ المفتوحة. وبصورة أقرب ما تكون إلى العفوية تعرفت على وجود شخص آخر في الغرفة كان مختفياً عند دخولنا إليها وراء عمود الدعم الموجود في وسط الغرفة، وكان شكله يميل إلى الطابع الرسمي السيادي، وكان طويلاً ومنتصب القامة، يرتدي ثياباً مسدلة ـ تكسوها طبقة بيضاء من عباءة ذات لون بني خفيف، وكان ذا وجه يميل إلى اللطف والرجولة، وكان يقف بعيداً وكأن ذلك بسبب الحياء والتواضع. وكان هذا هو ابن سعود شخصياً، عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود، إمام المذهب الوهابي وحاكم بلاد الوهابيين، أما الآخر فكان والده (عبدالرحمن)

(1) يطلقون على هذه الحجرة كلمة (دفتر) أو مكتب، وفيها يقوم ابن سعود بتصريف الأعمال التي لا يمكن القيام بها بحضور الجمهور. (المؤلف)

الذي كان يطلق عليه من باب اللباقة لقب (الإمام). لم أشهد الأب والابن بعد ذلك مع بعضهما بعضاً أبداً، وأعتبر أننا كنا محظوظين لمناسبة وصولنا في يوم الجمعة، وبالتالي فقد حظينا بمشاهدة اثنتين من خصوصيات النظام الوهابي: هما إغلاق بوابات المدينة خلال فترة أداء الصلاة، والتقيد الصارم بمبادئ الأسرة وتقاليدها في ظروف يكون من الصعب أن تجد لها مثيلاً. كان الإمام المتقدم في السن قد درج في أيامه الأخيرة، وبعد أن تقدم به العمر كثيراً، أن يقوم في كل جمعة بعد أداء الصلاة، بأن يخرج من العزلة التي تحيط به في داره ليسجل زيارة رسمية لابنه في القصر، وفي يوم الجمعة المذكور كان قد تصادف وصولنا في نفس لحظة زيارته، ولهذا السبب فقد تم التعامل مع قدومنا كممثلين للحكومة البريطانية مرسلين إلى حاكم البلاد، بحيث تم استقبالنا واستضافتنا، في أوّل مرة لوصولنا، في صالة استقبال الزوار بواسطة والده، في نفس الوقت الذي جلس فيه ابن سعود منزوياً في ركنٍ قصي وهو يذل نفسه ويتواضع طاعة لما أمر به الله. وفي الهند سبق لي أن شاهدت أب وابنه في نفس الغرفة، أحدهما يجلس إلى الأرض خالفاً رجليه، والثاني، وهو محام تلقى تعليمه في إحدى الجامعات البريطانية، يغوص بارتياح في كرسي جلوس وثير وهو يدير دفة الحديث، وكان أحدهما (الابن) فقد كان مستحياً قليلاً فقط من والده، أما في بلاد الوهابيين فقد كانوا لا زالوا متخلفين كثيراً عن تلك المرحلة من التحضير وكانت طقوس وشرائح العالم القديم لا زالت سائدة ومسيطرة بقوة، وبنفس القدر على العاهل والتابع. ولا يقوم الابن متعمداً بالدخول في الغرفة الأعلى إذا كان والده موجوداً في الغرفة الأدنى منها، وبحضور كافة الجماهير يتخذ مجلسه في أدنى مكان عندما يكون أبوه موجوداً.

الآن اتخذ الإمام عبدالرحمن مجلسه بالقرب من النافذة، داعياً إيانا للتحرك والجلوس على المقاعد التي بجانبه. وظهر أحد العبيد حاملاً الشاي وبعده القهوة، وكان في كل مرة يقوم أولاً بخدمة الإمام، وبعده بخدمتنا نحن،

ثم يذهب بعد ذلك ليصب لابن سعود. وفي مثل هذه الظروف لا يمكن للحديث إلا أن يأخذ الطابع الشكلي المتسم بالمجاملة. وبعد دقائق قليلة نهض عبدالرحمن من كرسيه وهو يعلق بأننا لابد أن نكون مجهدين بعد رحلتنا الطويلة والمضنية، ثم سار إلى خارج الغرفة دون إثارة أي ضجة. والآن حضر ابن سعود ليحتل المكان الشاغر ثم بدأت فناجين الشاي والقهوة تدور مرة أخرى من جديد. والآن قدم الكوب الأول لـه هو بطبيعة الحال. وبدأ من جديد تبادل الأحاديث الودية، وقد شكرته على الترتيبات التي اتخذها لتسهيل رحلتنا وهنأته على الأمن والهدوء الذي يسود بلاده حالياً نتيجة إدارته الجيدة. وقد عبر عن بالغ السعادة التي أحس بها وهو يقوم باستقبال مبعوثي الحكومة البريطانية وسأل عن صحة العديد من الأصدقاء الذين جمعته بهم الظروف أثناء زيارته للبصرة قبل اثنتي عشر شهراً، واستمر الحديث على هذا المنوال إلى أن اقترح هو بأننا قد نكون بحاجة إلى الراحة والاستجمام بعد العناء الذي كابدناه في مسيرتنا.

بعد انصرافنا من مجلسه قادنا إبراهيم إلى مقر إقامتنا الذي كان الكولونيل هاملتون يقيم به سلفاً، وهي عبارة عن شقة مكونة من ثلاث غرف وحمام تقع في الطابق العلوي من فناء واسع يشكل جزءاً من الجناح الشرقي للقصر ويفصلها عن صالة المقابلات ساحة مفتوحة صغيرة رباعية الزوايا، منها يوجد درج خاص معلق يقود إلى بابنا الخاص. ويبدو أن باقي الفناء كان مشغولاً بواسطة العبيد التابعين لأفراد العائلة وأسرهم، وقد تم إغلاق الأبواب المؤدية منها إلى شققنا بحيث تكون منفصلة تماماً عنها.

وحسبما علمت لاحقاً بأنها مخصصة عادة بواسطة ابن سعود لإقامة أي بدوية قد يتخذها زوجة لنفسه من حين لآخر أثناء الزيارات التي يقوم بها للمناطق المختلفة وعندما يكون راغباً بالاحتفاظ بها ضمن القائمة الفعلية عند عودته إلى المدينة. وقد كان هناك المزيد من أمثالها فيما بعد. وقد كان الغرض الذي من أجله تستخدم تلك الشقق يوحي بأنها ربما تكون من أفضل النماذج من حيث

التأثيث والترتيب بحيث كانت تشمل على أفضل ما هو موجود بالرياض. كان الدرج الخارجي يستخدم كمدخل خاص لابن سعود شخصياً، أما الأبواب الداخلية فقد كانت تستخدم لدخول الخادمات الإناث من حولها.

وكانت الشقق نفسها تضم غرفاً مركزية كبيرة تستند على ثلاثة أعمدة، مع حاجز أو فاصل يمتد ليشغل ثلثي عرضها المجاور للباب الداخلي ويستخدم لعزل الداخل من أنظار العامة عندما يفتح الباب لإدخال الخدم. وكانت تلك الغرفة فيما يبدو هي غرفة الاستقبال والتي كان يتفرع منها باب يؤدي إلى شقة نوم صغيرة ومربعة. أما الغرفة الثالثة فقد كانت صغيرة ومستطيلة وقد كانت فيما يبدو ليست بذات أهمية، وكانت تقود، شأنها كالحمام، إلى خارج بهو صغير عند الطرف الأعلى للسلالم الخارجية. وكان الحمام يتكون من ردهة صغيرة تقود إلى شقة الاستحمام، وخلفها كان المرحاض، والأخير عبارة عن غرفة صغيرة لا يوجد بها أثاث سوى كومة من الحجارة يبدو الغرض منها بديهياً، إضافة إلى منصة مرتفعة قليلاً من الطين مع قناة صغيرة منحدرة إلى أسفل تؤدي إلى حفرة أو فتحة في الوسط. ويتكون أثاث الحمام من أواني المياه المصنعة من النحاس أو ربما الفخار. أما بقية الغرف فقد كانت مجهزة بالبسط والسجاجيد والوسائد، مع القليل من الكراسي الخربة المغطاة بالبلش، لربما تم جلب الأخير من أجلنا. هذه في اعتقادي الشقة النموذجية في الرياض «أندرون andarun»، وقد كان يراد بها أن تشكل مسكني لمـدة سبعين يوماً بالكامل ولأوقات مختلفة خلال الأشهر القادمة.

أعقب وصولنا سريعاً ظهور وليمة سخية جلسنا خلالها على الأرض حول بساط كبير انتشرت فيه العديد من الأواني والأطباق المليئة بالخضروات وغيرها من المقبلات التي تجمعت حول كتل من الأرز واللحم، وقد قمنا بما يلزم من العدالة بصحبة إبراهيم والمولى (عبدالله بن عبدالإله)، والممثل الكويتي (منشى) الذي رافق الكولونيل هاملتون في رحلته. وبعد تناول الطعام تلقينا زيارة

من شاب صغير السن ذي مظهر جذاب هو (عبدالله سعيد أفندي) وهو عربي من الموصل وقد تصادف أنه كان زوجاً لابنة محمد أفندي من أهالي الأحساء، وكان قد درس الطب لعدة سنوات في اسطنبول، ويحمل دبلوم في الطب من تركيا، كما أنه قد أمضى عدة أشهر في باريس. وأعتقد أنه قد وصل البصرة قبل فترة وجيزة من اشتعال الحرب بين بريطانيا العظمى وتركيا، ومنها توجه إلى الهفوف إما للزواج أو لأنه قد تزوج سلفاً ابنة صهره وابن بلدته محمد. ونتيجة لانقطاعه عن موطنه بسبب الأعمال الفدائية التي حدثت في منطقة ما بين النهرين فقد وطن نفسه على البقاء في الجزيرة العربية خلال فترة الحرب وبالتالي عرض خدماته على ابن سعود الذي استخدمه بصورة مطلقة في وظيفة مزدوجة ليكون مستشاره الطبي والسياسي في آن واحد. وقد كان يتحدث الفرنسية بصورة ممتازة، وقد أوكل إليه ابن سعود مهمة تلبية طلباتنا، وبالتالي فقد أصبح رفيقاً ملازماً لنا باستمرار، وصديقاً يحظى باحترامنا وتقديرنا.

أمضينا ما تبقى من فترة الظهيرة في تفكيك أمتعتنا وترتيب شؤوننا في مقرنا الجديد، وقد تم تسليم الرسائل والهدايا التي أحضرناها لابن سعود بواسطة عبدالله أفندي. وقد قمنا أيضاً بتوزيع الهبات في شكل مبالغ نقدية وملبوسات على رفاقنا الذين صحبونا في رحلتنا من الأحساء. تم تقديم وجبة الغداء في الساعة الخامسة والنصف مساءاً أعقبتها فترة هدوء قمنا بالاستفادة منها في أخذ حمام كنت في أمس الحاجة إليه. وفي الساعة السابعة والنصف مساءً تمت دعوتنا لعقد أوّل اجتماع رسمي لنا مع ابن سعود.

2 ـ الرياض ـ المدينة وما جاورها:

خلال العشرة أيام التي أقمتها في عاصمة الوهابيين في هذه المناسبة كان كل وقتي مليئاً بمزاولة المهام الرسمية التي انتدبت من أجلها إضافة إلى المناقشات المطولة مع ابن سعود حول المشاكل التي كانت سبباً في حضوري إلى بلاطه لدرجة أنه لم يعد لديّ إلا القليل من الفراغ لدراسة حياة وطبوغرافيا

الرياض بالتفصيل الذي لم يكن ضرورياً لإيفاء الشرح ما يستحقه من عدالة ونزاهة. إضافة إلى ذلك فقد كنت أكثر اقتناعاً بالميل إلى ترك مثل هذا المجال الشاسع لاكتشاف مستقبلي خلال الأشهر التي كانت بانتظاري، وذلك بسبب أنني نادراً ما كنت أطمح في تعديل، أو تصحيح، أو إدخال تحسين من أي نوع، على الصورة المفعمة بالحيوية للمدينة ومواطنيها والتي تم رسمها قبل حوالي خمس وخمسون سنة بواسطة الرحّالة اليسوعي، ذي الجذور اليهودية، وليام جيفورد بلجريف، والذي أقام هنا لمدة اثنين وأربعين يوماً كان طوالها متنكراً في شكل طبيب سوري خلال فترة حكم فيصل الصارم، وهو جد مضيفي الراهن.

وبالرغم من ذلك فإن أي تناول لبلاد الوهابيين في العصور الحديثة لا يمكن أن يكون كاملاً دون أن يصحبه كروكي لمدينته الأولى وللحياة التي كانت تسود فيها. ويبدو أن المرحلة التي وصلتها الآن في روايتي عن تجوالي في الجزيرة العربية تشكل لحظة ملائمة لتجميع وتصنيف وترتيب المعلومات والانطباعات التي جُمعت بصورة عشوائية خلال فترات مختلفة أثناء إقامة استمرت لمدة سبعين يوماً تشتمل على ثلاث فترات مختلفة تفصل بينهما فترات زمنية تمتد لعدة شهور. وإنني لا أتجرأ أن أشرع في المهمة بحضور أحد كبار الفنانين للعديد من الاعتبارات ففي المقام الأول كانت تقلبات الحظ والتغييرات السياسية والاجتماعية التي صاحبتها لا تملك إلا أن تترك آثارها، ليست الروحية فقط، بل والمادية أيضاً، على عاصمة الدولة الوهابية طيلة تلك السنوات التي مضت منذ زيارة بلجريف. ثانياً، كانت الظروف التي أقمنا فيها بالرياض قد أتاحت لي من أن أحمل وأستخدم البوصلة وكافة الأجهزة العلمية الأخرى بكل حرية، الشيء الذي لم يكن بلجريف يجرؤ على ضمه لمعداته الشخصية التي كانت تكون صيدليته المتنقلة. وأخيراً وليس آخراً ـ أقول وبكل تواضع ودون أي ادعاء شخصي للعصمة من الخطأ ـ إنه كان في بعض الأحيان يخطئ، وسواء أكان ذلك بسبب النسيان أو الخيال الزائد أو لأية أسباب أخرى.

أما بالنسبة لبلجريف فهناك الكثير مما سيجيء لاحقاً. وعندما كنت أواصل رحلتي راكباً من الشرق إلى تلة (دريبات الخيل) المنخفضة، وصوبت نظري إلى الأسفل من حافتها، ولأول مرة على (الرياض، الهدف الرئيسي لرحلتنا الطويلة، وعاصمة نجد ومركز الجزيرة العربية، وقلبها النابض)، فقد تعجبت عما إذا كان المشهد الذي يبدو أمامي هو نفسه الذي كان قد جعل سلفي، ومنذ الوهلة الأولى التي طالعه فيها من حافة المنحدر الجبلي، يفتح مسارب الخيال الشاعري على مصراعيها. وبحثت عبثاً عن (الجبال الزرقاء، وسلسلة جبال اليمامة المشفهة) في الجزء الجنوبي، و(السهول الخصبة) من نفس المنطقة، (وقد انتشرت فيها وبكثافة البساتين والقرى)، وقد بحثت دون جدوى عن المناظر الطبيعية الواسعة والأكثر اختلافاً من تلك الموجودة عند الاقتراب من دمشق، والتي تتعانق فيها على مد البصر السهول الواسعة والجبال الشديدة الانحدار، في الوقت الذي يكون فيه ذلك المزيج من الجدب المواري والخضرة الزاهية، من الازدحام السكاني والبقاع الصحراوية، هو الشيء الذي يكون بمقدور الجزيرة العربية وحدها أن تمثله، وهو يبدو بالمقارنة مع سوريا شيئاً مألوفاً، ومع إيطالياً رتيباً ومملاً.

فبالنسبة للجفاف المداري والأراضي الصحراوية هناك وبلا شك المزيد وأكثر، وكان يقع أمامي حوض ضحل أجاصي الشكل يقع في عمق أرض عالية ومقفرة كانت عزلتها النائية الممتدة من الصخور العارية الخالية تنتشر في قوة مريحة تلك الخطوط الرقيقة ذات اللون الأخضر والأسود، والتي تشكل واحات الرياض ومنفوحة في غور الوادي. وكان هنالك لسان رقيق من المنحدر المجدب الذي كنا نقف عليه يفصل ما بين الواحتين، ممتداً باتجاه يبرز نحو الجنوب الغربي بينهما متجهاً نحو إحدى الشقوق في المنحدر الخلفي، حيث تقوم مجموعة متفرقة أو اثنين من أشجار النخيل بوضع علامة لموقع واحة الباطن ومجرى وادي حنيفة الذي يشق لنفسه ممراً عبر قلب الطريق. وقد وقفت

قلاع المدينة الطينية الضخمة متجاوزة رؤوس أشجار النخيل. بالقرب من الطرف الشمالي للواحة. وفي أماكن أخرى كان منظر إحدى القلاع أو المنازل يظهر من خلال شاشة الأشجار.

وكانت أبراج المراقبة المحطمة على شارع منفوحة لا زالت تروي قصة نضالها القديم.

ومنذ اليوم الأول لوصولي كنت قد ألقيت نظرة من عل على نفس المشهد من كل جانب من جنبات سهل الرياض، وقد كان هو نفسه من كافة النواحي ـ عبارة عن شاشة داكنة من أشجار النخيل في مواجهة خلفية صحراوية ـ فيما عدا من الاتجاه الجنوبي فقط، حيث كان، ونتيجة لانحدار الوادي في ذلك الاتجاه، كان من الممكن مشاهدة الامتداد للواحة المزدوجة على الفور، وكانت تظهر على شكل معين واسع يستند على مجرى وادي حنيفة.

أما بالنسبة لمنفوحة والباطن فسأتحدث عنهما في فصل لاحق فيما يتصل بالزيارات التي أتيحت لي الفرصة لتسجيلها إلى تلك الأماكن. وكانت واحة الرياض، التي يفصلها عن الأولى الشريط الصحراوي الذي أشرنا إليه سلفاً، وعن الأخيرة المنحدر الصاعد للطريق، تمتد من الضفة اليسرى لوادي حنيفة عند نقطة تقع في الوسط بين الاتجاهين الشماليين في أعلى خليج أو ممر ضحل يشكل جزءاً من مجرى الشمسية، وهو تقريباً ذو شكل منحرف، وزواياه متجهة صوب نقاط البوصلة الأربعة، وكان طوله من طرفه الجنوبي إلى حديقة الشمسية في الشمال يبلغ حوالي الثلاثة أميال، وعرضه في أوسع جزء منه يقل عن الميل الواحد، وهناك تقع المدينة نفسها، والتي غرست بكثافة ببساتين النخيل من كافة جنباتها عدا طرفها الشمالي الشرقي الذي تتخلل منظره فقط القليل من البساتين المتناثرة باتجاه مرتفعات (أبو مخروق)، حيث يجري مجرى الشمسية المائي، وهو الشريان الرئيسي للواحة، وإلى أسفل باتجاه الحديقة التي تحمل اسمه ومنها عبر السور الشرقي للمدينة باتجاه منفوحة.

لقد شيدت مدينة الرياض على منصة منخفضة من الصخور الجيرية المنحدرة إلى أدنى من كافة أطرافها من هضبة مركزية يقف في أبراجها، وفوق المنازل المحيطة، مجموعة مباني القصر الملكي. كانت خريطة بلجريف لعاصمة الوهابيين ـ وهي خريطة لا تمثل في ظاهرها شيئاً سوى كروكي تقريبي من الذاكرة ـ تعطيها شكلاً متوازي الأضلاع تقريباً مع انبعاج ظاهر إلى الداخل من الزاوية الشمالية الشرقية ويمتد من الشرق إلى الغرب في حجم يزيد بمقدار الضعف عما هو بالنسبة لامتدادها من الشمال إلى الجنوب. وقد تكون بعض التغييرات قد طرأت على شكل المدينة في خلال نصف قرن من الحركة والنضال، إلا أن الخارطة أكثر غموضاً وأقل تعريفاً أو تحديداً لكي تكون مقنعة، وذلك بالرغم من بعض التفاصيل الداخلية الممتازة رغم أنها في أغلب الحالات تبدو أكثر تخيلاً للرياض الحديثة من وصف يمكن أن يقوم به أحد الرحّالة الجدد الذي جعل المدينة في شكل (ل L) ووضع القصر في زاوية (L).

أمضيت الكثير من الساعات السارة مع البوصلة ودفتر المذكرات وأنا أقيس أسوار المدينة في محاولة مني للوصول إلى شيء مثل الفكرة الصحيحة عن شكلها واتجاهاتها وأبعادها، وقد كانت نتيجة أعمالي أحياناً تتضارب مع الشكوك التي يثيرها فضول الأهالي إلا أنني صممت على المضي قدماً إلى أن توصلت إلى هدفي، ويمكن مشاهدة ذلك في الخريطة المرفقة والتي توضح عاصمة الوهابيين في شكل غير منتظم وذي أضلاع عديدة، والذي يمكن اعتباره، بمساعدة قدر بسيط من الخيال، بمثابة مثلث كروكي متساوي الأضلاع بقاعدة يزيد طولها تقريباً عن ستمائة ياردة من الجهة الشمالية ورأسه من الجنوب بمساحة وهمية تبلغ حوالي المائة فدان، وبشوارع تتقاطع من كافة الاتجاهات باتجاه محيط الدائرة من أرض القصر المركزية وشبه الدائرية.

والمدينة محاطة تماماً بسور سميك من الطوب الطيني المنضج بواسطة حرارة الشمس، ويبلغ ارتفاعه حوالي خمسة وعشرين قدماً وتعلوه حافة ذات

تصميم شبيه بأسنان سمك القرش العادي، من حين لآخر[1] كانت استمراريته تتخللها المواقع المحصنة وأبراج الحراسة الأقل طموحاً، والتي تكون في الغالب الأعم ذات شكل دائري وتميل قليلاً باتجاه القمة إلا أن البعض القليل منها كان مربعاً أو مستطيلاً، ويتراوح ارتفاعه من ثلاثين إلى أربعين قدماً، وهو يبرز بصفة عامة قليلاً إلى خارج خط السور من أجل إتاحة قدر أكبر من التسهيلات الدفاعية. كانت الكثير من الأسوار وتحصيناتها الدفاعية، كما تبدو اليوم، تبدو نسبياً ذات تصميم حديث، حيث إن الاحتلال الرشيدي لعاصمة الوهابيين قد تميز بإزالة وإتلاف دفاعاتها، وهو واحد من العوامل التي برهنت أحياناً على تحطيم المعتدين، بقدر ما كان ابن سعود قادراً على دخول المدينة فوق أنقاض وحطام أسوارها دون أن ينتبه إليه أحد، إلا أن كلاً من الأسوار والحصون الواقعة على الجانبين الغربي والجنوبي كانت تبدو من خلال ضخامتها النسبية وصلابتها، وكذلك نتيجة لوجود حوض شبيه بالخندق المائي، وكأنها تشكل جزءاً من التحصينات الأصلية التي ربما يعود تاريخها إلى الوقت الذي كانت فيه كل من منفوحة والرياض صنوين تميزتا بقوتهما. ويجد هذا الانطباع المزيد من الدعم والقوة نتيجة لوجود ما يشبه الآثار الظاهرة الصغيرة والنقاط الخارجية على أطراف الواحة إلى الجنوب والغرب من مجموعات الأنقاض. وقد استخدم في تشييدها الكثير من الصخور الجيرية المتوفرة بكثرة في المنحدرات المجاورة أو بدون الملاط الطيني، كما تشير أيضاً بساتين النخيل الجميلة والأشد نضوجاً، والتي تصل إلى ما فوق أعلى الأسوار من تلك الأطراف، بأن تلك الأسوار، كما تبدو عليه الآن، هي بمثابة علامة للحدود الأصلية للمدينة في هذا الاتجاه.

وتشير الدلائل إلى مجموعات ضئيلة من الحطام يطلق عليها اسم (حجر اليمامة) تبعد حوالي ربع ميل إلى الشمال الشرقي للمدينة الحديثة باتجاه حديقة

(1) كانت كلها، في اعتقادي، اثنتان وعشرون.

الشمسية، بوصفها الموقع الأصلي للرياض، إلا أن المدى الضئيل للأنقاض كان يبدو وكأنه يدعم الاستنتاج القائل بأن الموقع التقليدي ليس بأكثر من تلك القرية الصغيرة التي يعود تاريخها إلى أيام ما قبل صعود الرياض، عندما كانت منفوحة هي سيدة السهل بكامله دون منازع.

كان المحيط الخارجي للسور به فتحات في تسعة أماكن تشكل مواقع للبوابات التي توقف استخدام بعضها بصورة منتظمة، عدا استعمالها فقط كوسائل للدخول والخروج من وإلى بساتين النخيل المسورة في الأماكن المجاورة لها. ومن الأخريات كانت أهمهن هي بوابات (الثميري) و(الظهيرة). وكانت الأولى تقع في الجانب الشرقي للمدينة وتستخدم بمثابة المخرج الأساسي والمنتظم الذي يقود إلى الطرق الرئيسية الواقعة إلى الشمال والشرق، وكذلك إلى الطريق الجنوبي المتجه صوب منفوحة، بينما كان الآخر الواقع في الركن الشمالي الغربي يقود إلى الطريق الشمالي الغربي المؤدي إلى الوشم والقصيم وكذلك إلى طريق الحجاج الغربي المتجه إلى مكة. وتأتي المرتبة الثانية من حيث الأهمية بوابات (دخنه والمريقب أو المرقب) من ناحية الجنوب الغربي إضافة إلى مخرج يقع بينهما يحمل اسماً. وهي تقود كلها إلى الطرقات الجنوبية والجنوبية الغربية، وبوابة (البديعة) التي تقود إلى خارج صوب الباطن، وأخيراً بوابة (الشمسية) التي من خلالها يستطيع الشخص أن يعبر خارجاً إلى الطريق الشمالي.

وبالنسبة للترتيب الداخلي للطرقات فقد كان يفتقر إلى التناسق باستثناء ما تم ذكره سلفاً فيما يتعلق بالتحولات والتغيرات الطبيعية والخاصة بكافة الطرق الرئيسية الواقعة على المنطقة الوسطى. وكان الشارع الرئيسي هو ذاك الذي يقود في خط رئيسي من بوابة الثميري إلى القصر ومنه عبر السوق إلى مخرج البديعة، مع طريق فرعي يتفرع منه في زاوية قائمة من طرف السوق الغربي إلى بوابة الظهيرة. ينحدر مقر السوق، الذي يشغل كافة الميدان المفتوح الواقع شمال القصر، غرباً وهو يتدلى في انحدار حاد بحيث ينقسم إلى جزأين بواسطة حاجز

حائطي، وقد خصص الجزء الواقع بين هذا الحائط وبين سور القصر بكامله للنساء اللائي يعملن في بيع الخضروات، وبيع الأغراض المنزلية وما شابهها، بينما يضم الجزء الآخر، وهو الأكبر، حوالي (120) متجراً متواضعاً ينتشر بعض منها على جانبي الطريق العام الواسعة والجديدة وبعضها الآخر يستند بظهره على جزيرة رقيقة في منتصفه وهي متواضعة الطول. وتتقابل المتاجر الممتدة على الجزء الشمالي من السوق جزئياً مع الأسوار الخارجية للمساكن العادية وجزئياً مع السور الجنوبي للجامع الكبير نفسه.

وفي خلال أيام السوق وأثناء ساعات الذروة في الأيام العادية يشكل السوق مشهداً يتسم بالحياة والحركة، فالمتاجر تقوم بعرض مختلف أنواع البضائع والأدوات اليدوية التي تتفاوت متدرجة من أصناف البضائع المستوردة والبضائع الخاصة بالأشغال الجلدية والسروج، وصولاً إلى كافة الاحتياجات الضرورية الأخرى كالشاي، والبن، والسكر، والتوابل، واللحوم، والأرز وغيرها من ضروريات الحياة حتى يصل إلى غيرها من السلع الكمالية والترفيهية مثل البنادق، الذخيرة، الساعات، مناظير الميدان، وهلم جرا، ويتم قفل الطريق العام بأسراب من قطعان الماشية التي تصبح موضوعاً للكثير من الجدل والمساومة بين أصحابها وبين من يريدون شراءها، والذين يتجولون متنقلين من حيوان لآخر بصبر الرجال المصممين على القيام بمساومة جيدة أو لا شيء، وهم يتحسسون الأجزاء البدنية من تلك الحيوانات التعيسة بأصابع خبيرة. وما بين الفينة والأخرى يمر أحد التجار أو الباعة المتجولين المدفوعي الأجر وسط الزحام وهو يحمل بندقية أو زوجاً من مناظير الميدان، أو عباءة من مصنوعات الأحساء، وهو يصيح بآخر سعر عرض عليه محاولاً أن يحصل على عرض أفضل منه. وما بين الحين والآخر يقوم واحد أو اثنان من الجمال المحملة بعلف الماشية أو المحروقات بشن طريقها بصورة يشوبها عدم الاكتراث وسط تجمعات الرجال والحيوانات وهي تتحسس طريقها وسط الزحام بالخشونة

الذكية المألوفة بالنسبة لنوعها وهي تقوم بخدش الأشخاص الواقفين على جانبي الطريق بأحمالها المتدلية. وعندما تحين أوقات الصلاة يتغير المشهد بصورة دراماتيكية ومفاجئة، فعند سماع أولى ارتفاع صوت المؤذن تغلق المتاجر أبوابها، وتنفض الحشود المتجمعة لتذهب لأداء مناسكها ويتجول المراقبون أو المطوعون عبر الطرقات الخالية. وفي لحظة تكتظ الشوارع مرة أخرى بالأشخاص الذين يحدقون بأجفان مسدلة تجاه المساجد وبعد ذلك ينقطع الصمت فقط بالتبتلات العميقة لثلة من المصلين، وتعاود المتاجر انفتاحها بعد الفراغ من الصلاة، ومرة أخرى يمتلئ السوق بحشود من الرجال. وبهذه الطريق يبدلون ما بين الضوضاء والصمت طيلة اليوم.

يعتبر مسجد الرياض الكبير أو (الجامع) فناءً واسعاً مستطيلاً أبعاده حوالي ستين ياردة في خمسين ياردة، ويواجه مدخله الرئيسي السوق عبر فتحة موجودة في صف المتاجر الذي يحيط بحائطه الغربي، بينما يتم تحديد القبلة، أو اتجاه الصلاة، بواسطة نتوء جنوبي ـ غربي خفيف جداً في الواجهة الغربية الطويلة التي يوجد بالقرب منها، كما هو الحال أيضاً بالجانب الشرقي، مدخل فرعي. وينقسم الفراغ الداخلي إلى ثلاثة أجزاء، الأوسط منها يشكل بهواً مكشوفاً يشغل حوالي ربع مساحة المبنى بأكمله، بينما نجد الاثنين الآخرين قد تمت تغطيتهما بأسقف مسطحة ومنخفضة تستند على عدة صفوف من الأعمدة المشيدة من كتل الحجارة الضخمة لتشكل روقات منعزلة لراحة المتعبدين أثناء ساعات النهار القائظة الحرارة. وتشكل الواجهات الداخلية لتلك الرواقات المواجهة للبهو المكشوف الواقع في الوسط صفوفاً من الأعمدة ذات أقواس مسننة مطابقة لفن العمارة الوهابي المفضل[1]، رغم أن بناءها يتسم بالخشونة والبساطة. ويشغل

(1) يبدو من الواضح أن المؤلف عندما يستخدم كلمة وهابي أو وهابية في مثل هذا الموقف كأنما يتحدث عن النجدي أو النجدية إذ ليس هناك عمارة وهابية ولكن هناك عمارة تقليدية نجدية أو على الطريقة النجدية. المترجم

الرواق الواقع على جانب القبلة حوالي نصف المكان بأكمله، تاركاً الربع الباقي للآخر. أما بالنسبة للأسقف فهي خالية من أي تزيين، ومحاطة بواسطة متاريس منخفضة مع تصميم ذي درج منخفض ذي منظر يفتقر إلى البراعة بالقرب من وسط الجانب الشمالي بغرض استخدامه كمنارة، حيث إن المنارات من الأنواع المعروفة بالنسبة للبلدان الإسلامية الأخرى تعتبر محرمة بالنسبة للوهابيين الذين يعتبرون أن أي تزيين أو زخرفة لأماكن صلواتهم كعمل من أعمال الشيطان. وهناك نتوء مماثل إلا أنه أشد صغراً يزين الركن الجنوبي الشرقي من المبنى، بينما يبرز محراب القبلة أيضاً بطريقة خفيفة فوق مستوى السقف.

وبالإضافة إلى المسجد الكبير والقصر نفسه فإن المبنى الوحيد ذي الصفة العمرانية المتميزة في المدينة هو الحصن، وهو مبنى ضخم ذو شكل مربع ذو حيطان ضخمة ومعاقل ضخمة في الأركان الأربعة الواقعة إلى الشمال قليلاً من الشارع الرئيسي في الوسط ما بين القصر وبوابة الثميري.

وهي تعود في شكلها الراهن ظاهرياً إلى أيام حكم فيصل[1] أو بداية حكم ابنه وخلفه عبدالله الذي يعود الفضل في وجودها إليه[2]. وهي تستخدم الآن بمثابة مستودع للأسلحة، وحراسة، ومستودع فقط بواسطة ابن سعود الذي وجد، في الفترات الطويلة من السلم التي نعم بها هو شخصياً بعد عودته من المنفى، إن الأبعاد الفسيحة لقصر جده أكثر تمشياً مع دور الإمبراطورية العظيمة من البرج المحصن بالأسوار الغليظة أو السميكة الذي كان عمه يبحث عنه في تفادي غدر أو خيانة الأخ الطموح.

وأياً كان الأمر فإنه، وبالاستثناء البسيط للحصن الموجود في بريدة، فإنه

(1) يقصد الإمام فيصل بن تركي المؤسس الثاني للدولة السعودية الثانية.

(2) يبدو أن المؤلف يتحدث هنا عن قصر المصمك وهو هنا يشير إلى أن بناءه تم في عهد الإمام فيصل أو في بداية عهد ابنه عبدالله وهذا الرأي هو الأرجح لدي وبعكس ما تذكره بعض المصادر من أن هذا القصر أو هذه القلعة أقيمت في عهد حكم ابن رشيد. المترجم.

لا يوجد مبنى في كافة حدود مملكته يتسم بالروعة في اتساقه، وفي جماله ودقة تمثيله لكافة ما هو أفضل في العمران العربي الحديث مثلما هو الحال بالنسبة للقصر الملكي لابن سعود. وتجيء ميزته من حيث بساطته المتناهية في التصميم ومن حيث الغياب التام تقريباً للزخرف وبطريقة تعد ملائمة تماماً بمبنى قصد به ألا يوفر مجرد الراحة فقط بل ويوفر أيضاً الأمن لأولئك القاطنين بداخل أسواره. كان جزءاً كبيراً من الجناح الغربي من المبنى، أثناء فترة زيارتي، في حالة خربة نوعاً ما، وكان البناؤون مشغولين في إحياء وترميم النظام من حالة التشوش السائد وبالتالي زيادة المساكن الداخلية الموجودة تمشياً مع النمو الحاصل في أفراد العائلة، إضافة إلى خدم وحشم ابن سعود الذي كانت أجنحته الخاصة تحتل موقعاً متمركزاً بجوار السور الجنوبي، وكانت متصلة مع بعضها بعضاً بممرات وكذلك مع مبنى القصر الواقع في وسط السور الشمالي الذي كانت توجد فيه غرف الاجتماعات والمكاتب الخاصة بالإدارة المركزية. وإليها كانت البوابة الرئيسية المطلة شرقاً من كوة بارزة التصميم أو فتحة تقود مباشرة إلى الحشود التي تحيط في كافة الأوقات بالمدخل، والتي يمكن الإطلالة عليها بصورة مريحة من العديد من النوافذ الشبكية الموجودة في مقصورة ابن سعود الخصوصية الموجودة في الطابق الأول من الجزء البارز الواقع مباشرة فوق الباب. وقد خصص الجزء الشرقي من المبنى في الغالب للخدم العاملين بالدار كالعبيد والخدم من كلا الجنسين، والذين يشغلون فناء يقع في الركن الشمالي الشرقي، وللمطابخ والإسطبلات التي تنتشر على امتداد الجزء الجنوبي الشرقي. وهناك بوابتان منفصلتان تؤديان إلى الدخول إليها من الناحية الشرقية. وتقوم الحصون بتوفير الحماية للقصر كل في نطاق حدوده، إلا أن أكثر الأجزاء أناقة من بين كافة المبنى هو بالتأكيد ذلك الذي يطل أولاً على مشهد القادم نحوه عبر الشارع الرئيسي المؤدي من البوابة الشرقية للمدينة. أما بالنسبة للبرج الفسيح الواقع في الركن، والامتداد الواسع للسور الطيني، بثقوبه الدقيقة المثلثة الشكل وما تحيط به من حواشٍ مدرجة وعالية، تحدها في الطرف الأقصى الزاوية

المتشكلة نتيجة لبروز القلعة والجزء المركزي المرتفع الذي يمتد إلى الداخل من الأخيرة والذي يشكل في نفس الوقت كقمة بالنسبة لها ـ كل هذه تشكل مجتمعة منظراً أمامياً غاية في الروعة يواجه الميدان المفتوح والسوق. وعندما يكون الطقس حاراً كان سقف الجزء الأوسط المرتفع يخصص لاستعمالي خلال الأمسيات، ومن ذلك الموقع القيادي، وهو أعلى نقطة في المدينة، بأكملها، كان بمقدوري أن أمسح ليس الأسقف المجاورة فقط، بل كل الريف المحيط طولاً وعرضاً. وكان ينتصب فوقه عمود طويل ومترنح كان يبدو وكأنه بمثابة سارية للعلم إلا أنه في واقع الأمر بمثابة عمود لمصابيح الإضاءة، وقد كان يوضع مصباح ضخم ذو شكل مقوس تم شراؤه من بومباي على قمته في كل أمسية لكي يعطي ضوءاً للعديد من أسطح القصر، حيث كان ساكنيها ينشرون أنفسهم خارجاً للتمتع بهواء الليل العليل. وعادة كان يتم إنزال المصباح وإطفاؤه حوالي ما قبل منتصف الليل. أو عندما يأوي ابن سعود إلى فراشه، إلا أنه، وخلال شهر رمضان، كان الضوء يترك مشعاً طوال الليل للإضاءة لحشود المصلين، وكانت إزالته قبل الفجر بقليل تعطي إشارة للمدينة بأكملها بأن صوم اليوم التالي سوف يبدأ بعد قليل.

يشغل القصر، الذي تغطي مساحته، بصورة غير منتظمة، الجزء الأكبر من القطاع المركزي، وكذلك مساكن مختلف أفراد العائلة المالكة، حسبما قدرته بصورة تقريبية، حوالي ربع المساحة الكاملة للمدينة. أما بالنسبة للمساجد، والتي يتراوح عددها ما بين خمسة عشر وعشرين مسجداً[1]، إلا أنها

(1) يأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية، بعد الجامع الكبير، مسجد آل الشيخ الواقع إلى الشرق من القصر، وقد أطلق عليه هذا الاسم تيمناً بالزعيم الوهابي (عبدالله بن عبدالوهاب) ويؤدي الوهابيون صلاتهم كلها فيه ما عدا أيام الجمعة، حيث يؤم الناس في صلاة الجمعة بالجامع الكبير. وللإمام عبدالرحمن مصلى صغير خاص به في منزله، وهناك واحد آخر في القصر يذهب إليه ابن سعود عادة عندما لا يذهب إلى الجامع الكبير. وهناك مسجد آخر يقع بمحاذاة الحصن، فيما بينه وبين الشارع العام.

لا تضم أي من الأشكال المعمارية الأنيقة عدا الجامع الكبير، وكذلك الحصن فربما شغلت هي الأخرى تقريباً حوالي نفس المساحة، بينما يظل النصف المتبقي من مساحة المدينة الواقع بداخل أسوارها مكتظاً وبكثافة بالدور السكانية العادية التي ليست هناك من ضرورة للتطرق إليها بصفة خاصة.

وفيما حول المدينة، عدا الاتجاه الشمالي الشرقي، تقع بساتين النخيل الكثيفة الخاصة بالواحة. وتوجد في الكثير منها مباني تستخدم كمساكن ريفية أو منتجعات عندما يرغب ملاكها في الهروب من روتين حياة المدينة. وتوجد فيها آبار الماء العميقة أو الجلبان (جمع جليب أو قليب) والتي لا تتوقف حركة رفع أو نتح المياه فيها ليلاً ونهاراً. وهي تبدو جميعاً متشابهة، وبالنسبة لتلك التي تقع في الوسط، والتي تروي حديقة (الوسيطى)، وهي عبارة عن بستان واسع يقع على الطرف الجنوبي الشرقي للمدينة وتعود ملكيته للإمام عبدالرحمن، فيمكن اعتبارها نموذجاً للبقية. وتبلغ مساحة فتحة هذه البئر الضخمة حوالي عشرة أقدام مربعة في أعلاها وتتناقص تدريجياً إلى أن تصل إلى مكان وجود المياه، والذي يقع على عمق يتراوح ما بين أربعين إلى خمسين قدماً تحت سطح الأرض. ونجد أن الجزء العلوي منها، والذي يتم نحته في الصخور الجيرية الصلبة، إلى ما يصل حوالي ثلث عمقه، يتمتع أيضاً بتقوية إضافية تتمثل في الألواح أو الشرائح الحجرية التي يجري لحمها مع بعضها بالأسمنت. ويحيط بفوهة الحفرة شكل مثلث تعوزه أناقة التصميم ويطلق عليه اسم (العدة) وهو مشهد من جذوع أشجار النخيل وخشب الأثل بغرض الانتظار تحته، وبالنسبة للعارضة المتقاطعة الخاصة بالعدة فهي مجهزة بست بكرات (محالة) في كل جانب أو اثنتي عشرة في مجملها. بينما تستند العارضة القاعدية على بناء من الحجارة فوق فوهة البئر الحقيقية وهي مزودة بعدد من البكرات يطلق عليها عبارة (الدراجة). وتجرى حبال القنب القوية، التي يربط في أحد أطرافها الدلاء الجلدية (القرب ومفردها قربة) والتي تصنع عموماً من كامل جلود الماعز، على البكرات التي يتم ربطها

في هذه الحالة على الحمير الضخمة من سلالة الأحساء، وفي حالة بعض الآبار التي يتم ربطها على البغال والحمير بصفة مزدوجة[1]، بينما يتم وصل الحبال الرقيقة التي تجري فوق البكرات في أحد أطرافها على الحمير وفي طرفها الآخر تربط مع رقاب الدلاء الجلدية التي يتم تثقيلها بالحجارة التي تربط مع أطرافها السميكة. وفي كل جانب من فوهة البئر يوجد انحدار شديد يتناسب طوله مع عمق حفرة الماء. وتبدأ الحمير، وكل منها مربوط مع دلوه بالحبال الرفيعة والقوية، في السير على خط واحد، ستة من كل جانب، وهي تسير هابطة إلى المنحدر المائي، وفي أثناء هبوطها تجر الدلاء المليئة بالماء، وعندما تصل إلى أسفل السطح تكون أطراف الدلاء القوية أو أجسامها قد وصلت إلى مستوى البكرات الموجودة في العارضة العليا، بينما تكون أطرافها الدقيقة أو أعناقها، والتي تم أيضاً جرها بنفس الطريقة فوق البكرات، قد صبت محتوياتها من الماء في خزان من البناء يقع أسفلها مباشرة، ومن هناك يتدفق الماء خارجاً إلى داخل القنوات التي تقوم بتوزيعه على الحديقة. وعندما تصل الحيوانات إلى أسفل المنحدر تتوقف للحظة ثم تدور مرة أخرى، وكلاً منها يدور على نفس مركزه، وبعدها يواصل الخط صعود المنحدر أثناء هبوطه، وبهذه الطريقة يقوم بإنزال القرب المثقلة بالحجارة إلى داخل الماء، حيث تتكرر نفس العملية التي قمنا بوصفها هنا دون انقطاع. وبالرغم من إن هذا النظام المبسط المستعمل في رفع الماء من البئر يبدو بدائياً وغير متقن، إلا أنه يعمل بصورة مرنة وبكفاءة. وقد يحتاج إلى بعض الإصلاحات من وقت لآخر بالنسبة للأخشاب وسطح المنحدر، إلا أن أسوأ ما يمكن أن يحدث في الظروف العادية هو انقطاع الحبل نتيجة احتكاكه مع البكرة وتآكله. ففي مثل هذه الحالة تظل الدلاء المثقلة

(1) لا يتم استخدام الجمال في جلب الماء من الآبار بالرياض رغم أنها أكثر استعمالاً من الحمير في أماكن أخرى. وفي القرى الفقيرة تقوم الأبقار والحمير من الأنواع الرديئة بممارسة هذه الخدمة أيضاً.

بالحجارة باقية في أسفل البئر، ويقوم أحد الحاضرين بأخذ حبل بديل آخر معه وينزل بواسطة الحبل الرئيسي إلى أسفل حيث موقع الحدث، وبعد أن يقوم بإجراء الإصلاحات اللازمة يتم سحبه مرة أخرى مع الدلاء إلى مستوى البكرة أو المحالة حيث يقوم بحركة رياضية رشيقة بإخراج نفسه مرة أخرى إلى اليابسة. وتعود ملكية البغال المستخدمة في بعض حدائق الرياض بكاملها إلى ابن سعود الذي حصل عليها كغنيمة من آخر حامية تركية كانت موجودة بالأحساء. وبالرغم من أن بئر الوسيطة يمكن أن تعتبر صورة طبق الأصل بالنسبة للآبار الموجودة بالواحة من حيث شكلها العام وتصميمها، بل ويمكن اعتبارها نموذجاً لآبار المنطقة الوسطى من الجزيرة العربية بأكملها، إلا أنها ليست هي الأكبر بأية حال، فهناك على سبيل المثال واحة في حديقة (الحوطة) يتم تشغيلها بأربعة عشر حماراً، سبعة من كل جانب، بينما نجد بئر (العتيقة) بها متسع لثمانية حمير من كل جانب، وقد تم إخطاري، رغم أنني لا أذكر أنني شاهدت ذلك بنفسي، عن جليب يتم تشغيله بواسطة عشرين حيواناً، عشرة من كل جانب. وقد أكد لي ابن سعود وهو يحدثني في إحدى المناسبات عن فن السباحة حسبما هو معروف بالنسبة للعرب ـ ومن الغريب أن جنساً من البشر يعيش في بلد يندر فيه الماء يمكن أن يكون لـه إلمام بالسباحة على الإطلاق، وبالرغم من ذلك فإن العرب سباحون مهرة ـ بأنه يعرف رجال يقفزون إلى داخل تلك الآبار من فوق العارضة القاعدية ويخرجون منها دون أن يمسهم أذى، ووعدني بأن يطلعني على مهاراتهم في هذا المجال إلا أنني، وبكل أسف، نسيت أن أذكره بهذا الموضوع وبالتالي لم تتح لي الفرصة لمشاهدة مزاولة هذا العمل البطولي. كان عمق الماء في هذه الآبار يختلف بطبيعة الحال، حسب المواسم، إلا أنه ربما كان من النادر أن يزيد على العشرين أو الثلاثين قدماً، هذا إن كان يبلغ ذلك.

وفي الفضاء المكشوف الواقع بين بوابة الشمسية وما يحيط بها من بساتين النخيل الواقعة على ذلك الجانب، والذي يضم حديقة الحوطة ويمتد شمالاً إلى

حديقة الشمسية، تقع إحدى المقبرتين الكبيرتين اللتين تأويان سكان المدينة عند مفارقتهم لهذه الحياة الدنيا. وهي مجرد أكوام منعزلة ومنخفضة من الأتربة والأنقاض المتراكمة، وهي تصلح لتذكير أولئك الذين لا زالوا على قيد الحياة بتفاهة الحياة البشرية، حيث يرقد هنا جنباً إلى جنب في هذه الأكوام الترابية كل من الأمير والفلاحين دون تمييز، وبالرغم من أن أولئك الذين قاموا بدفن أشخاص أعزاء عليهم لا زالوا يذكرون مواقع قبورهم ويقومون بزيارتها من وقت لآخر لطلب الرحمة من الله لمن فارقوا الحياة، إلا أن أحفادهم سوف ينسون، وسوف لن يكون بمقدور أي منهم أن يوضح لي آخر أماكن الراحة الأبدية لفيصل العظيم وأسلافه. وحتى أنا لست متأكداً عما إذا كان أولئك يرقدون هنا أم في المقبرة الصغيرة أو ما يطلق عليها (المقبرة الملكية) الواقعة في أقصى الشرق وعلى الضفة اليسرى لمجرى وادي الشمسية، حيث يتم حالياً دفن أفراد الأسرة المالكة هناك.

وفي حوالي منتصف الطريق بين المقبرتين وأمام البوابة الشرقية الرئيسية يقع الميدان الذي تؤدى فيه صلاة العيد، وهو ميدان مكشوف وواسع وذو شكل مستطيل محاط بسور طيني منخفض، وبه محراب للقبلة يقع في وسط الجانب الغربي. ويستخدم هذا الفناء فقط لأداء الصلوات في مناسبات الأعياد، وهو على قدر من السعة يكفي لاستيعاب كافة سكان المدينة الذكور الذين هم في عمر أداء مناسك الصلاة، أما بالنسبة للنساء اللواتي من المسموح لهن المشاركة في أداء صلاة العيد فيتم عزلهن عن الفناء نفسه ويتركن ليصلين في العراء الواقع خلفه.

هذه هي الملامح الرئيسية للرياض عاصمة الوهابيين وملكة الصحراء الجالسة على عرش من الصخور والمحاطة بأشجار النخيل التي تعزلها عن القفر المحيط بها والذي تنعكس عزلته وكآبته في قلوب ساكنيه الخاوية.

الفصل الثاني

الريـــاض
مـلكة الصحـراء
1351 هـ/1931 م



الرياض ملكة الصحراء[1]

مهما يكن الشخص متعوداً على التكوين الطبيعي لعاصمة المملكة العربية السعودية فلا يمكن أن يكون بمقدوره أن يقترب منها مرة ثانية، بعد فترة من فترات التغيب عنها، ودون نظرة من الاستغراب. فهي تظل غير ظاهرة للعيان إلى أن يقترب منها الشخص كثيراً، حيث تقع مخبأة ومدفونة داخل أرض قفر وجرداء، ذات تموجات كلسية عديمة الشكل عديمة الملامح، تمتد شمالاً وشرقاً، دون توقف، لما يقارب الخمسين كيلومتراً. ويجري في وسط كل هذا، ولكن بصورة مخبأة تماماً داخل رحم هذا القفر المحيط بها، ذلك الوادي الخصيب والمزدهر الذي يطلق عليه وادي حنيفة والواقع بين ضفتين شديدتي الانحدار والتآكل.

وطيلة اقترابه من طريقنا الذي كنا نسير فيه. لم نكن نرى من مجراه، على طول الطريق، سوى لمحة خاطفة، وكان أوّل شيء قام بتحية أنظارنا المنهكة بعد ساعتين من السرعة العاصفة من الجبلية هي حدائق وبساتين الشمسية، وهي

(1) جاء هذا الوصف للرياض في كتاب A pilgrim in Arabia «حاج في بلاد العرب» الذي ألفه الحاج عبدالله فيلبي، تحت عنوان: «The Queen of Desert - Riyadh» ونشره في لندن عام 1946م. وهذا النص المترجم هنا جاء في فصل 11، ص 93 إلى ص 122.

أكثر حدائق الرياض توغلاً في الجهة الشمالية، والتي تُرى على بُعد أربعة كيلومترات. وقد لاحت لأنظارنا أثناء صعودنا على هضبة بسيطة الارتفاع، تبعد قليلاً عن المشهد الكامل للجزء الشمالي من الواحة، المدينة القابعة وسط أسوارها المحصنة.

وقد ارتفعت غمامة بسيطة من الغبار فوق المشهد الذي لم يكن يلوح فيه، على ذلك البعد، شيء لافت أو مثير للإعجاب. كانت الصحراء هي التي تسيطر على عقل الواحد أكثر من المدينة، حيث كانت ترتسم في كل اتجاه بواسطة الخطوط المتقاربة والمتقاطعة للقوافل والوفود التي مرت بها في أزمان سحيقة، كما كانت محددة هنا وهناك بواسطة عجلات وسائل المواصلات الآلية الحديثة، والتي جاءت لتبقى، مع أنها لم تقم بأي حال من الأحوال، بالتغلب على وسائل النقل القديمة التي كانت شيئاً عادياً بالنسبة لأسلاف عرب اليوم.

وكانت أغلب المجموعات تتكون في الغالب من حوالي الستة أشخاص مع العديد من الرواحل قد تكثر أو تقل، لكنها في بعض حالات القوافل الكبيرة، تقوم بقطع تلك الصحراء بجهد مشابه لذلك الذي قمنا به نحن أنفسنا، وبسرعة يكون من شأنها إتاحة الوصول في صبيحة اليوم التالي، بينما كنا لا نتطلع إلى ذلك قبل ساعة أو ساعتين من مغيب الشمس. ومثلما توقعنا كان من الصعب الإحساس بالريح القادمة أثناء الحركة إلا إذا كانت ذات سرعة شديدة، حيث كانت تجرفنا بصورة مفاجئة ولكن بصورة كاملة للغاية وسط غبارنا ذي اللون الأصفر الفاتح، ولربما كنا نحسد زملاءنا البطيئين الذين تخلفوا عنا بمسافة بسيطة يمنة أو يسرة حيث كانوا يتهادون وهم يمشون في تثاقل دون قلق ودون غبار. وقد نكون نحن المتقدمين في إحرازنا للهدف المشترك، لكنهم أيضاً سيدخلون بعد قليل في نفس معبد الكرم وحسن الضيافة. كانت هناك الألوف منهم ـ حسبما سمعته أنها كانت تقدر بحوالي 80,000 نسمة ـ قد كانوا وذهبوا قبلهم، وحتى تلك اللحظة كان باقي الزوار المتناثرة خيامهم وسط الصحراء،

بألوانها البيضاء والسوداء أو المخططة، ونساؤهم وأطفالهم وعبيدهم ـ يجب أن يتراوح عددهم بين الأربعة أو الخمسة آلاف شخص.

ومنذ عودة الملك في بداية يوليو كانوا يتدفقون إلى هنا من كل أطراف القرى والأرياف النائية بغية تقديم فروض الولاء والطاعة واستلام استحقاقهم عن خدماتهم (غير المرئية) هذه ـ كان هناك جيش ضخم وواقف على أهبة الاستعداد يتم الدفع لـه استناداً على مبدأ السخاء والمكرمة التي تكون طبقاً لرغبة ومشيئة الملك، لكنها مع ذلك تدفع في فترات منتظمة مقابل ظهورهم شخصياً وبأنفسهم. ويتم الدفع بالنسبة لأولئك الذين حضروا بالفعل لتقديم البيعة في الرياض، ويقوم كل زعيم قبيلة أو عشيرة وبشكل عادي بإحضار أي من أبنائه أو أبناء اخوته الذين يكونون قد بلغوا سناً يمكنهم فيها من امتطاء كل واحد (لذلوله) وتقديم البيعة بالانحناء[1] أمام الملك شخصياً. ويعد هذا نظاماً عظيماً وعتيقاً، كان يساء استغلاله أحياناً في الماضي وكان كفيلاً بإتاحة أحط أنواع سوء الاستغلال.

أما الآن وبناءً على الأيدي الأمينة التي تقوم بإداراته مع ذلك المزيج من الكرم والاقتصاد فإن المولود ملكاً وحده هو الذي يمتلك السر. ولقد قال ابن سعود يوماً من الأيام لمجموعة مكونة من العديد من زعماء القبائل البدوية عندما كانوا مع آخرين، بانتظار إشارة تناول الغداء: (إن من الغريب أن يكون البدو في واقع الأمر غير مخلصين أو خدومين على الإطلاق إلا إذا تم الضغط عليهم واستخدامهم بقسوة. إن الصدقة أو الإعانة هي التي تفسد البدو، وحسبما هو

(1) ليس من عادة العربي المسلم في الجزيرة العربية أن ينحني أمام أي مخلوق، وإنما يقوم بفروض الطاعة وإظهار الاحترام وهو واقف لا تنحني له هامة، هذا بالإضافة إلى أن الملك عبدالعزيز وهو العربي الأصيل لا يسمح لأي إنسان من أتباعه أو غيرهم أن ينحني أمامه، وإنما وردت هذه العبارة من المؤلف ربما لمسايرة المصطلح الغربي في مثل هذه المناسبات ولا تعكس بالضرورة واقع ما كان يتم عند مقابلة الملك عبدالعزيز لرعاياه. (المترجم).

متبع اليوم في العراق وشرق الأردن، بينما تفترض التجربة العشائرية الخاصة بالدفعات المنتظمة لقاء خدمات مماثلة، كما هو الحال في نجد، أن يكون هناك عائد لما يتقاضاه البدو).

وطيلة الشهر المنصرم كانت البطحاء وغيرها من الأراضي المريحة والملائمة للتخييم حول العاصمة مليئة لدرجة الفيضان برجال القبائل المخيمين من الجهات الأربع. أما الآن فقد تناقص الضغط كثيراً، ومع ذلك كان الاقتراب نحو المدينة يبدو في حشود وبالمئات، وكانت سياراتنا تزحف باتجاه الشارع الرئيسي في صعوبة بالغة للغاية من بوابة الثميري وحتى مدخل القصر.

وحسبما كنت أتوقع سماعه، كان الملك خارج المدينة في تلك الساعة (بعد صلاة العصر أي حوالي الساعة الرابعة مساءً) وأنه ليس من المحتمل حضوره قبل انقضاء ساعة أو ما يقارب ذلك بعد مغيب الشمس، فقد كان في استراحته الريفية التي يطلق عليها اسم (البديعة) في الباطن، وهو قصر تم بناؤه بواسطة ابنه الأكبر سعود داخل مجموعة كبيرة من بساتين أشجار النخيل المتوارثة أو التي قام بشرائها بنفسه.

ولقد كان من الصعب أن نقرر ماذا نفعل في هذه الظروف. فبالتأكيد لم يكن بمقدور مجموعتنا الكبيرة بكاملها أن تنتقل إلى الباطن بحثاً عن الملك، وبما أني قد تأكدت من العديد من التابعين عند البوابة أن المجموعة نفسها من الغرف قد تم حجزها لي كما كان يحدث بالنسبة لي عند بداية السنة. عليه قررت أن ألقي بكل أمتعتنا في تلك الغرفة ثم أذهب وحدي مع جابر إلى الباطن. وقد تخلف كردي منتظراً مع الأمتعة، بينما قام الطبيشي الممتاز بالأخذ على عاتقه اتخاذ كل الترتيبات الضرورية اللازمة فيما يتعلق بالضيافة والترحيب ببقية المجموعة عند وصولهم. كما قام (رشيد الهويدا) و(ابن عمرو) بمصاحبتي أنا وجابر بحثاً عن (إبراهيم بن جميعة) للحصول على موافقته على هذا الترتيب.

وقد حدث أن تصادف مرور اثنين من الجمال المحملة بحطب الوقود عبر

الشارع الجانبي نفسه في الوقت نفسه الذي كنا نمر فيه، وقد بذل قائد الجمال أقصى جهده عدا شيئاً واحداً لم يفعله، ألا وهو الخروج عن طريقنا. وفي النهاية كانوا قد تركوا أحمالهم ملقاة على الطريق كمانع يعوق تقدمنا، حيث قاموا هم أنفسهم بالهروب في الأزقة الضيقة بعيداً عن لحاقنا بهم في حالة تتبعنا إياهم. وقد بحث ابن عمرو عن إبراهيم، ثم عاد بكلمة مفادها أن نقوم بكل تأكيد بالذهاب إلى الملك. وفي خلال دقائق قليلة، وبعد أن قمنا بوضع أمتعتنا في القصر، كنا نغادر خارجين من بوابة الثميري في طريقنا إلى الباطن ـ الواقعة على مسافة تسعة كيلومترات وربع، على طريق معقول، مع أنه لم يكن بالكفاءة المطلوبة، ويقع في أغلبه على الصحراء الجيرية الخاصة بحوض شمال الرياض وشرق وادي حنيفة.

وقد شاهدنا الملك في مكان جلوسه عند النافذة الخشبية الخاصة بغرفة الجلوس الواسعة في الطابق الأعلى من قصر سعود الصيفي، شاهدناه أثناء هبوطنا ـ من ذلك الطريق الخشن إلى مهبط ذلك الوادي الرملي الذي يتوجب علينا عبوره قبل أن نصل إلى الباب. وحتى مع تحذير ابن عمرو بأن تقوم أغلب السيارات بأخذ مسار أطول وأسهل إلى الجانب الأيسر بغية تفادي أسوأ نوع من الرمال، التي راح ضحيتها الكثيرون، فقد قمت بوضع السيارة الفورد الصغيرة على الممر المباشر حيث استجابت لذلك بنجاح تام. وفي لحظة كنا أمام الباب ثم صعدنا إلى الطابق الأعلى حيث قمت بتحية الملك بالقبلة العادية على جبينه، ثم قمت بتحية باقي الحاضرين الذين تجمعوا لديه بعد تناوله وجبة الغداء.

وقد بدا جلالته بكل تأكيد في صحة جيدة للغاية بعد أن انقضى شهر على غيبته في مكة، حيث كانت الظروف المناخية والاقتصادية قبل مغادرته قد هبطت به إلى حالة من الحساسية والإحباط. وبوصوله إلى ذلك الطقس الصحي والطبيعي النظيف في نجد كانت سحب التشاؤم التي خيمت لفترة طويلة، خلال الأشهر القليلة بمكة، قد تبددت. ولسبب واحد كان انتقال العرش وكل ملحقاته

وتوابعه الأخرى من الحجاز إلى نجد قد خفض تكلفته بما يتراوح بين الستين أو السبعين في المائة على أقل تقدير.

قد بدا لي سلفاً خلال تلك الأيام الأولى البسيطة التي أمضيتها في الرياض أن نجداً قد بقيت وحدها سليمة وبمعزل عن التدهور الاقتصادي الذي حاق بالعالم كله في تلك الأيام الصعبة. وأياً كان المعدل، فقد غدا الملك، لأسباب بعضها جسدي والآخر سيكولوجي، للمرة الثانية في صحة جيدة، مع أنه شخصياً لم يكن ليعترف بالشعور باللياقة التامة إجمالاً. لقد أصبح في الفترة الأخيرة أكثر ميلاً إلى حياة تقل فيها الحركة، حيث حصر نفسه داخل القصر، فكان فقط يتحرك من عمله إلى زوجاته وأطفاله، ومن هناك إلى عمله. وحتى في المناطق الجميلة المحيطة بالبديعة كان قانعاً بما فيه الكفاية بالجلوس بالداخل أكثر من الاستمتاع بنقاء وجمال الحديقة. وقد بدا الآن فاقداً للاهتمام، بأي شكل، بالطبيعة، وبما أن الكثير من أيام حياته الأولى أمضاها في الصحراء فقد كانت لـه ذخيرة جيدة من الإلمام بالطبيعة ـ مع عدم وجود أي وجه للمقارنة مع منافسه القديم، الملك السابق حسين.

كما لم تكن لديه رغبة في ممارسة أي نوع من الرياضة، مع أن جسده الضخم ـ الذي تقلص مركز جاذبيته تدريجياً إلى الجزء الأسفل من الصدر نتيجة لتطورات منتصف العمر، ـ حيث كانت تقتضي بأن القليل من المجهود والنشاط الجسدي سوف يكون لـه تأثير طيب على بنيته بصفة عامة. إن الحياة المليئة بقدر غير عادي من الحركة والنشاط خلال فترة بلغت حوالي الثلاثين سنة، بالإضافة إلى النجاحات التي لم تتغير، والتي تم تحقيقها فقط بجهود خارقة من العزيمة والطاقة قد تغيرت فجأة إلى ذلك الروتين المنتظم لشخصية عظيمة وصلت إلى قمتها.

ما زال ابن سعود هو أعظم رجل في الجزيرة العربية، فما زال هو الرجل الذي لا غنى عنه من أجل تطورها تحت ظل النظام الجديد، لكنه لم يعد وحده

كافياً لإنجاز المهمة الكبيرة العظيمة الموكلة إليه. كان فيما سبق يحاول أن يعمل كثير للغاية، وقد تمخضت عن ذلك انتكاسة مريرة تمثلت في إحباط مزمن، لم يكن ملحوظاً بصورة دائمة، لكنه مع ذلك كان دائماً موجوداً تحت السطح، ويمكن سبره بسهولة بواسطة أية لمسة عشوائية. وفي أيام معاناته وصعوباته الأولى، وربما العظيمة، ومع كل شيء كان لـه مساس بحياته نفسها فقد كان كما أتذكره جيداً وهو في طور الفترة المتوسطة الأخيرة دائماً لطيفاً، ومتفائلاً، وواثقاً، ومجازفاً، وديمقراطياً. والآن بعد أن صار ليس لديه ما يفقده وهو جالس بكل ارتياح في أعلى قمة شجرة المجد والعظمة الإنسانية فقد بدا أكثر ميلاً للاستبداد والتخوف، كما غدا عصبياً وأكثر تشاؤماً، وعقليته أكثر اكتئاباً وحديثه أكثر اقتضاباً عدا تلك الفترات البسيطة التي كان يطلق فيها لنفسه العنان كما كان سابقاً في المجتمع البدوي، حيث يتحدث عن الحرب والنساء وغيرها من التجارب الأخرى).

مع ذلك، ومع كل الاعتبارات، فقد كان هذا الرجل يتمتع بسلطة مطلقة على مملكته، وإن كل ذلك لم يكن مستمداً من تدخل العناية الإلهية أو بحكم المولد ولكنه كان ناجماً عن جهد دؤوب من العمل الشخصي الشاق ـ كما أن شعوره أيضاً بأن سلطته المطلقة ربما كانت أيضاً، وإلى حد ما، نوعاً من الإلهام الروحي، قد أفقده ذلك باستمرار القليل من إنسانيته. وقد كان هو فوق هذا وذاك بمثابة عينة نادرة من الفرسان العرب من العصور القديمة. كانت النساء والخيول والجمال، واللبن والتمور والرحلات الخلوية والحروب هي التي تشكل الخلفية الأساسية لشخصيته إلى أن أجبرته حماقة حسين إلى ارتفاع المد الخاص بالقومية العربية على اقتحام مجال السياسة الدولية والدبلوماسية والإمبريالية.

وفي التكوين الجديد لم يكن قد ترنح قط منذ البداية، لكنه قد صار مرهقاً، دون شك، لافتقاره إلى الرجال المخلصين لتطبيق رغبته وللقيام بكل

أمانة وصدق، ودون خوف، بشرح حقيقة المواقف الجديدة ذات الطابع الغريب. لقد صار أقل مرحاً عما كان عليه فيما مضى. وأصبح أكثر تدنياً في صحته. ولربما كان قد أطلق النار على جرأته وإقدامه، لأنه كان آنذاك لم يزل في الحادية والخمسين من عمره، وتبقت من الجزيرة العربية اليمن فقط خارج نطاق مملكته (باستثناء المناطق المحمية أو الواقعة تحت الانتداب).

ولكن حتى لو كان هو آخر امتداد أسلافه أولئك الذين كانوا يحلمون بالجزيرة العربية الكبرى، وهي موحدة ومزدهرة تحت الحكم العربي، فيمكنه أن يورث هذه الأحلام لأحفاده الذين لم يولدوا بعد، والذين سيرثونه لقرون تالية يكون العالم خلالها قد طرأت عليه تغييرات كبيرة.

لم يكن لأحد أن يشك قط في أن ابن سعود وحده من بين كل أبناء جيل الحرب والاحتلال والسيطرة في الجزيرة العربية كان هو الذي يمتلك كل المقومات الأساسية للنجاح. وقد قام أولئك الذين أدركوا هذه الحقيقة في تلك الأيام، بطبيعة الحال، بالميل إلى أن يضغطوا على كاهله ويحملوه مهمة وغاية يندر أن يضطلع بها رجل آخر بخلاف رجل خارق ألا وهي مهمة إعادة توحيد وتحديث الجزيرة العربية لكي تكون بمثابة سلطة قوية، وقد أدركوا من خلال أكثر من عامل واحد، كان آنذاك غير قابل لأن يقاس بدقة، مع أنه لم يكن على الإطلاق خارجاً عن نطاق التصورات المستقبلية ـ أدركوا اتجاه السلطات والقوى الأوروبية العظمى نحو بناء دولة عربية عظيمة وقوية فوق أنقاض الحرب والدمار.

نحن نعرف الآن أن كلاً من إنجلترا وفرنسا لم تكونا تريدان للجزيرة العربية أبداً أن تصبح حرة وموحدة ومستقلة. كما نعلم أيضاً أن ابن سعود كان سيضيع وقته فقط لو كان قد اصطدم بأشواك المناطق المحمية أو تلك الواقعة تحت الانتداب. وعليه فإن وجهة نظر القوى الأوروبية قد تكون أيضاً أثبتت أنها عقبة أمام توحيد البلاد العربية في وقتنا هذا. وقد كنا نحس أن كثيراً من المتاعب

الحقيقية لابن سعود قد كانت آنذاك والتي كانت سبباً فيما يعانيه من إحباط وتشاؤم ـ وقد كانت هي عبارة عن متاعب ذلك الأسد الذي اكتشف وجود آثار تحوم حول عرينه.

وقد أدت الضغوط الاقتصادية الناشئة عن التجاوزات الإدارية الجسيمة في خلال أيام الوفرة، وكذلك الحاجة الماسة إلى القروض التمويلية، دورها في التنمية التي قام بها الملك في الفترة الأخيرة، لكن المشكلة الحقيقية كانت في تلك العقبة غير المرئية التي ضيقت عليه حياته. فلو كانت مهمته قد أكملت لكانت قد أصبحت أساساً ومصدراً للأسى، لكن نقاده كانوا سيتمكنون بعدالة من تحديدها وعزوها إلى القصور المؤكد في الإنجازات في لحظة من فترات الأزمة الاقتصادية.

وبالطبع على الذين يدعون أنهم قوى عظمى في هذا العالم أن يوضحوا قدرتهم على أداء هذا الدور ـ ويمكن فقط أن نضيف مع الأسف أن كلاً من العراق وفلسطين (على سبيل المثال) آنذاك كانتا بكل تأكيد، قد حيل بينهما وبين تجارب الحجاز الجديدة من المطالبة بالحكم الوهابي بديلاً عن النظام القهري الراهن أو دون أية بدائل عشائرية محتملة بالنسبة له.

لقد كان رحيل الملك عن مكة بنهاية شهر يونيو بمثابة تحرر لـه. فقد كان الانتقال نفسه نوعاً من الاقتصاد، كما كان يحلو لـه شخصياً أن يقول. فيمكن أن يتم صرف نصف نفقاته اليومية في الرياض حتى في حالة غيبته عنها ـ في الإنفاق على البيوت، رواتب الموظفين والخدم، والصرف على قصر الضيافة العام ـ في الوقت الذي يتم فيه هنا القيام باقتصاد كبير في النفقات عن طريق الحد من ميزة استخدام السيارات. وقد كانت هنالك حوالي دستة من السيارات تشاهد وهي تستخدم بانتظام، كما كانت هنالك عشرون سيارة أو أكثر كانت جاهزة لحركة النقل في الحجاز، والأحساء وأماكن أخرى. وقد كان هناك عدد كبير مدخر لمقابلة أية احتياجات مستقبلية، مع أنه لم يكن واضحاً جداً أنها يتم الاعتناء بها

أو حمايتها بصورة سليمة من السرقات الصغيرة التي يبدو أن كل سائقي السيارات في البلد كانوا مولعين لها وميالين إلى ارتكابها.

وليس من نافلة القول أن تعتبر عودة البلاط بكامله إلى نجد بمثابة تحسين كبير في الأحداث العارضة بمكة، إذا كان المراد فقط أن تتم إدارتها وترتيبها بصورة مستديمة، وأن تقتصر زيارات الملك المستقبلية لملكه على ذلك الحد الأدنى الذي لا غنى عنه أو شيئاً من هذا القبيل.

وبصرف النظر عن الجانب الاقتصادي في عملية التغيير فقد أصبح الاتصال اللاسلكي بين الرياض والحجاز (منذ 19 أغسطس 1931م) ساري المفعول، ولم يكن للإدارة العامة ما ينقصها، وكان كل شيء من الممكن ضبطه والتحكم فيه، على البعد، بواسطة الملك دون حاجة منه للتدخل في كل صغيرة وكبيرة، وقد عمل ذلك على خفض الآلة الحكومية في حالة من التجميد على وضعها الراهن خلال بواكير صيف ذلك العام.

كما أوضحت سلفاً فقد وجدت الملك عند وصولي إلى الباطن وهو يستمتع بذلك الطقس غير العادي لقصر البديعة، وبصحبته العديد من أفراد العائلة المالكة والبدو وغيرهم من رفاقه ومعاونيه الذين يشاركونه اجتماعاته العادية. وقد كان حاضراً من البدو آنذاك نافع بن فضلية من قبيلة حرب (والذي انضم إلى الملك من القصيم فور عودته إلى الرياض).

ومطلق بن يزيد من دوشان مطير (كان من المتمردين قبل أكثر من سنة بقليل لكنه أصبح الآن تابعاً أميناً لا يفارق مليكه الذي وصفه بأنه دخل في حظيرة الإسلام بمحض اختياره، وليس بحكم المولد ـ كما هو الحال بالنسبة (لفيلبي). وفي إحدى هذه المناسبات لاحظت أن مطلق كان متغيباً. وقد سمعت أنه ذهب مع قوة من الهجانة من معسكر الملك في الصحراء في مهمة قد تكون عامة أو خاصة، لكن لا أحد لديه أية تفاصيل عنها.

أما القصة التي كان يتم الهمس بها فهي تقول بأنه قد ذهب بحثاً عن بنت

يتزوجها ـ فزعماء البدو هؤلاء يُعَدون مفتونين بالنساء، وهم دائماً على استعداد للدخول في مغامرة زواج جديدة. ومع ذلك فقد كان لدي في هذه الحالة انطباع آخر بأنه قد ذهب في الواقع في مهمة مختلفة. وبطريقة مبهمة كثيراً، فقد غادر صوب الحدود العراقية باحثاً عن تلك المتاعب التي تواجه رجالاً من نوعه، باحثاً دوماً عن فرصة ما للاشتباك وسط هذه الفترة من السلام المخيم على المنطقة. وفوق كل ذلك كان مطلق واحداً من أولئك الأعراب المتزمتين الذين لم يكن بمقدورهم أن ينسوا تلك الأيام، التي لم تكن بعيدة للغاية، عندما كانوا ينطلقون بحثاً عن توجيه ضربة في سبيل الإيمان الصادق بغرض الحصول على مكان في الجنة، مع أن كلفتها المباشرة قد تكون الموت.

كان الرجل ذا العيون الرمادية، محمد بن شامي، من قحطان هو الثالث وربما يكون الأخير من حيث الأهمية بين الثلاثة. وبعد عدة أيام قليلة كان مذكر من آل حشر (قحطان) قد وصل، على افتراض أنه رسول من فيصل. ولقد شاهدت العديد من البدو الآخرين ذوي الأهمية عدة مرات خلال هذه الأيام القليلة بما فيهم ماجد بن خثيلة، أحد شيوخ قبيلة عتيبة، بلحية سوداء قاتمة تغطي نصف تكشيرته الدائمة والأكثر جاذبية. وهو مسؤول بصفة خاصة عن كل الجمال الخاصة بالملك، وهو خبير بكل الأماكن التي تتردد إليها الغزلان وطيور الحباري عليها بكثرة في كل المواسم.

وكان فيصل بن حشر منذ وفاته وخلافته في زعامة فرع عشيرته من قحطان بواسطة ابنه خالد، (وهو شاب صغير بوجه كثير البقع والبثور)، وهو عميد المجموعة ـ وهو يعد مستودعاً لقصص لا نهاية لها من المغامرات في الصحاري في تلك الأيام الحلوة القديمة. وقد تمرس من خلال الحياة الشاقة على تحمل العطش بدرجة مذهلة ـ وحتى في الظروف العادية لم يكن يقترب من الماء إلا نادراً. ولم يكن يمانع في تناول كوب من القهوة عرضاً عندما يحصل عليه، لكن التمر والحليب هما اللذان يشكلان وجبته الرئيسية، مع اللحم طبعاً عندما يكون

متوافراً. ويشاع عنه أنه قد قتل أكثر من مائة رجل في إحدى المعارك، ويعد منافسه الوحيد في هذا الخط وصيفه فيصل الدويش ـ الذي كان في هذه الفترة في السجن لثورته ضد الملك، وقد كان مقدراً له أن يتوفى وهو بالحجز بعد سنة أو سنتين من الآن.

وقد كان على رأس الأشخاص المتحضرين الموجودين مع جلالته، بلا شك، يوسف ياسين كبير سكرتارية الملك الخاصة، وهو رجل شاب من اللاذقية ذي مظهر جذاب (يمكن أن يؤمن لـه في أي يوم دوراً رئيسياً) وبديهة حاضرة. أما بالنسبة لقدراته وإخلاصه للملك فقد كان ذلك شيئاً لا يتطرق إليه الشك، من الأشياء القابلة للاستفسار عنها سواءً تلك المتعلقة بالمناقشة مع الملك، أو في القضايا الأخرى العامة، التي تؤدي دوراً كبيراً في الإدارة، فإنه لم يمكن أن يعول على نفسه كثيراً بأن يطلق عليه لقب رجل دولة.

لقد كان الملك دون شك رئيساً صارماً، ويجب ملاطفته ومجاراته، خاصة أمام الجمهور، ومن وقت لآخر، لكن مستقبل نجاح الحكومة الوهابية أو فشلها كان يعتمد كثيراً على أولئك الناس من أمثال يوسف ياسين وعبدالله السليمان (وزير المالية)، وبالنسبة لكليهما لم يكن الواحد بمقدوره أن يتجاهل ذلك الاتجاه القوي للموافقة على كل العبارات العاطفية التي تنطلق من شفتي الملك. ربما يكون الفرق بين الرجلين هو أن يوسف، في الوقت الذي يبذل فيه كل جهد لحث وتشجيع رئيسه متى كان ضرورياً، بأي خطأ يكون قد لاحظه، من أي نوع، فقد كان يقوم بكل إخلاص وشفاهة، بحمل الأوامر التي يكون قد تلقاها وتبليغها، في الوقت الذي كان فيه عبدالله السليمان، وهو مغامر بحكم مولده، وفيه كل الغرائز والعصبية الخاصة بالرجل المغامر، قد كان على أتم الاستعداد للموافقة على أي شيء يقوله ابن سعود، وأن يقوم بالإجراء خلافاً لذلك وعلى مسؤولياته الشخصية أملاً في أن يكون ملكه قد نسي أوامره، أو أن يقوم بتقبل النجاح بديلاً مساوياً للإخلاص والطاعة.

أما نقطة ضعف كلا الرجلين القويين فكانت تكمن في عدم مكاشفتهما للملك بالحقيقة كل الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة ينطقونها بشفتيهما، لقد كانا ممتلئين بالرعب ـ الرعب من ماذا؟ الرعب والخوف من فقدان منصبيهما البائسين أو حتى حياتهما البائسة الحقيرة! وعليه فقد فقدا، ومن ثم، الخاصية الأساسية للأهمية والعظمة الإنسانية، حتى لو ذكرهما التاريخ على الإطلاق فإن ذلك سيكون على سبيل الدمى المتحركة في يد ذلك الرجل الوحيد من الجيل الراهن في المملكة العربية. ولم يتم تصنيفهما أبداً على أساس أنهما من رجال الدولة. مع ذلك فقد كان الخوف ـ من وجهة نظر الملك الشخصية ـ هو الينبوع الذي تتولد فيه كل الخدمات الجيدة ـ فلا أحد يخدم بصورة جيدة ما لم ينتبه الخوف من النتائج المترتبة على عدم طاعته أو قصوره.

وقد قال محمد شلهوب ـ أمين خزينة الرياض ـ يوماً للملك: «والله! والله إني أخافك أكثر مما أخاف الله». أجاب ابن سعود: «ما قلت إلا الحق أيها الحقير لأنك بالتأكيد تخاف الله» وما الخوف من الملك إلا امتداد لمخافة الله التي تعد أساس الإسلام، لكن فلسفتهم البدائية لا تقوم بتمييز ذلك، ففي حين أن الله وحده هو المعصوم من الخطأ، ومن ثم هو الأحق أن يخشاه كل من يخاف مشيئته، فإن ذلك التفسير نفسه لا يكون صحيحاً في حالة الملوك الذين يحتاجون أحياناً إلى النصيحة، وأحياناً إلى رقابة أتباعهم العاملين معهم.

كان يوسف ياسين عندما يكون ضمن حاشية الملك وهو بعيد عن مكة، يبدو وكأنه حكومة للحجاز ونجد وتوابعهما الصغيرة. وكان كل شيء يأتي من الحجاز يمر عبر مطحنته، وكان هو بمثابة لسان الملك في كل المراسلات العائدة إلى الطائف أو مكة. وقد كان إلى جانبه فريق صغير من الشبان كتبة وسكرتارية ونساخ على الآلة الكاتبة، لكنه لم يكن منهم من يعادله في وظيفته أو أهميته. أما بالنسبة لطبيب الملك الخاص الدكتور مدحت شيخ الأرض، ومساعده أحمد ياسين (المسؤول عن مستشفى الرياض) فلم يؤديا أي دور

سياسي على الإطلاق، مع أنهما كانا يحضران المقابلات الخاصة في حرية تامة. وبالإضافة إليهما كان يوجد هناك، خلال هذه الفترة، رجل طرابلسي ذكي ومقتدر، وهو في منتصف العمر وينحدر من إحدى الأسر الجيدة، ويدعى خالد القرقني، وكان يقيم في الرياض ضيفاً مثلي. وكانت تجري في عروقه حكام دم إسبانيا من العرب القدامى (بني هود) وقد أمضى فترة طويلة من حياته وهو يكافح ويقاوم الاحتلال الإيطالي لوطنه (الذي اكتمل الآن باحتلال الكفرة[1] في ظروف أدت إلى حدوث اعتراضات واحتجاجات قوية وصارخة على امتداد العالم الإسلامي). وقد تولى خلال جزء من عام 1930م وظيفة رسمية بوصفه واحداً من مساعدي نائب الملك في الحجاز، لكنه لم يكن سعيداً بروتين العمل الرسمي الذي لم يكن دخله يكفي لتوفير ضروريات العيش لأسرة معتبرة تضم بنات اشتهرن بالجمال، وأصبحت إحداهن فيما بعد زوجة للسياسي والإقطاعي المصري المشهور (عبدالرحمن عزام). وعليه فقد ترك منصبه الرسمي ليلتحق بالشركة الألمانية الجديدة (De Haas & Co.) في جدة شريكاً، وعندما أصيب العمل التجاري في صيف 1931م بالكساد التام اختار أن يقوم بمرافقة الملك إلى نجد. ويبدو أنه كان يمارس نوعاً من الصلاحيات الاستشارية، وقد رافق المهندس الأمريكي، المستر كي. إس توتشيل، في مهمة تتعلق بعمل مسوحات تقديرية عن المعادن المحتمل وجودها بالمملكة. وقد كان هو أيضاً من أولئك الذين كانوا يعاملون الملك بدبلوماسية ملكية شديدة، ومن ثم ضاعت عليه الفرصة في أن يؤدي دوراً مؤثراً وإيجابياً في الشؤون الخاصة ببلده الذي انتسب إليه - والذي لم يكن ربما أي من تكوينه ونشأته أو ربما قلبه قد تأقلم عليه بالكامل.

لقد خلف لدي هذا المسح السريع للأشخاص المحيطين بالعرش في

(1) الكفرة: موقع في صحراء ليبيا استخدم مقراً للسنوسية.

الرياض في تلك الفترة إحساساً بالتشاؤم بأنه ـ باستثناء الملك نفسه الذي كان حتى مع كل أخطائه رجلاً جباراً، وليس هنالك من أحد في الحكومة الوهابية يتمتع بالعزيمة الأكيدة والقدرة على تقديم خدمات بارزة بالنسبة للقضية العربية، فقد اعتمد الجميع بطريقة تكتيكية على ابن سعود للقيام بالمعجزات الضرورية (التي هي طبقاً لرضاء الأغلبية وموافقتها، تكمن في توحيد الشعوب العربية تحت راية حكومة واحدة)، وكان يثغون كالخراف في نبرة حمقاء مفادها أنه إذا لم يتمكن هو من تحقيق ذلك الهدف فلا أحد بمقدوره أن يحققه، ولا شيء يهم كثيراً.

ولم أشعر في حياتي بالإحباط لمستقبل الجزيرة العربية أو تطلعاتها بقدر ما شعرت به خلال الأشهر القليلة التي تلت موسم الحج. وقد تطابق ذلك فجأة مع حدوث الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالبلد قرب نهاية موسم الحج. وحتى ذلك الحين كان نوع من التفاؤل الضمني والأمل القائم على أقل قدر من الأسس، هو الذي أبقى على الناس أحياء ومتيقظين. وقد وقعت الضربة وأصيب البلد والحكومة فجأة بالانهيار وكأنها قد صارت عاجزة أو مشلولة. ولم يسمح الملك لأي أحد بأن يقوم بعمل شيء، كما أنه لم يقم هو نفسه بشيء، بينما كان عندما ذهب، قد ترك خلفه هيكلاً وبنية يمكن أن يقال عنها، بكل تأكيد إنها حكومة، لكنها كانت على حافة الإفلاس، ولا أحد يمكن أن يكون قادراً على إنقاذها بخلاف عبدالله السليمان، الذي استمر في الزواج بكل أبهة وبذخ، وكان يبدو مشغولاً أساساً بمهمة إنقاذ نفسه من العقاب الإلهي القادم.

كانت دورة الشتاء التي تخللتها بعض رحلات الصيد وسط متاهات (بانبان) و(السلي) قد انتهت ليجيء بعد ذلك الروتين المخيف لزخرف الصيف. فقد عدنا مرة أخرى ـ بطبيعة الحال ـ إلى ذلك النظام الصارم وغير الجذاب والخاص بأداء صلاة الجماعة بانتظام. فبعد الثالثة صباحاً بقليل في كل يوم، وعندما تلوح خيوط الضوء الباهتة من الشرق، كان يتم إيقاظنا من النوم لنغتسل

سريعاً، ثم نجري سريعاً إلى مصلى الملك الخاص الواقع مباشرة فوق المسجد الصغير الموجود داخل فناء القصر.

ويتكون هذا المصلى من جزأين، أحدهما مسقوف ومقفل لاستعماله في الشتاء، أما الآخر فهو مفتوح تحت السماء لاستعماله في الصيف. وإذا حضر الواحد إلى هنا في الوقت المناسب يكون بمقدوره أداء ركعتي السنة، ثم ينتظر بعد ذلك وصول الملك، الذي بمجرد ظهوره يقوم واحد بالإسراع نحو المحراب المطل على المسجد وهو يصيح: «أقم». تلي ذلك ركعتا صلاة الفجر العاديتين (والفجر في معناه يسبق الشروق)، أو طلوع الشمس، وتنتهي بنوع من التسبيحة المقتضبة.

ليست هناك أي صلاة من صلوات التنفل يمكن أن تعقب الفرض بعد طلوع الفجر على افتراض أن الصلاة عند اقتراب الشمس قد تقود الناس بالتشبه بالوثنية. وبعد هذه الصلاة يعود كل شخص ليأوي إلى سريره، حيث أبقى في حالتي أنا شخصياً (على سطح القصر) إلى أن تكون الشمس، عند حوالي الساعة السادسة صباحاً، كافية لمقاطعتي. بعد ذلك مباشرة، ما بين الساعة 7 ـ 7,30 صباحاً، يقوم الملك بعقد مقابلة غالباً ما تتم في أربع غرف منفصلة الواحدة تلو الأخرى. وتكون المقابلة الأولى في غرفة مكتبه الشخصية، وهي الغرفة التي قابلته هو وأباه لأوّل مرة فيها عام 1917م، وذلك لتصريف العمل مع كتبته وسكرتاريته إضافة إلى استقبال أي زائر خاص.

بعد ذلك ينتقل إلى المجلس العام في الغرفة المقابلة، وهي غرفة واسعة يستند سقفها على ستة أعمدة، وتتم تغطيته بقماش، حيث يكون الزوار قد أخذوا مجلسهم مسبقاً. وتستمر هذه الجلسة عادة لفترة قصيرة، وإذا كان هناك أي شخص يستحق الجلوس معه على انفراد، فذلك يتم في الغرفة المجاورة، وهي مجاورة أيضاً لغرفة مطالعة يوسف ياسين التي يتم فيها الوصول إلى آخر مرحلة من مراحل المقابلة النهائية وأكثرها خصوصية.

وهنا يظهر سعود، الوريث المرتقب وولي العهد أو غيره من أفراد الأسرة المالكة الآخرين، إضافة إلى أشخاص آخرين مثل خالد طبيب الملك الشخصي، وأي أشخاص آخرين لديهم مزايا شبيهة بأذونات دخول خاصة.

ينتهي العمل اليومي في حوالي الساعة العاشرة صباحاً أو بعدها بقليل، إذ يعود الملك إلى مخيم أو مجمع قصر البديعة وحديقته، حيث يقيم فيه الآن ذلك الجزء المفضل لديه من حريمه وبصفة مستديمة. وهناك يظل لما تبقى من اليوم حتى حوالي الساعة السابعة مساءً ثم يعود إلى الرياض بالسيارة لقضاء الليلة مع واحدة أو أخرى من زوجاته حسب دور كل واحدة. ربما كنت متسبباً أو غير منضبط إلى حد ما عند استعمالي لعبارة (الجزء المفضل لديه)، ولكن لا أعتقد أن ذلك كان دون سبب. لقد كان هو نفسه يتحدث عن أهل منصور (أو والدة ابنه منصور) بوصفها أهم واحدة من زوجاته، وهو ذلك الجانب أو الجزء الذين كان هو يعيش فيه بصفة دائمة ويتناول فيه وجباته.

كان الأطفال الذين ينتمون إلى هذا الجزء من المنزل هم منصور، وبندر، ومشعل، وطلال (وهو طفل يبلغ من العمر سنة واحدة وقد جاء بعد أخ كامل لـه يحمل الاسم نفسه وكان قد توفي قبل سنة في الطائف)، وكانت سيدة الأمهات (أم منصور ومشعل)[1] هي شاهدة[2] التي ظلت تحتل مكانة خاصة في قلب الملك لمدة أكثر من اثنتي عشرة سنة. وكانت هنالك زوجته الأخرى، وهي أم بندر، تحتل بعض هذا الجزء من المنزل، إضافة إلى ثالثة هي أم طلال، ولكن كانت شاهدة، من بين هؤلاء جميعاً، تبدو أنها التي تحتل دون غيرها الوضع الكامل للزوجة.

وكان لكل واحدة من الزوجات النظاميات (الشرعيات) الأخريات مسكنها

(1) وأنجبت لـه الأمير متعب ربما بعد كتابة فيلبي لعمله هذا ولا أعرف إذا كان الأمير متعب آخر أبناء الملك من زوجته الأميرة شاهدة أو شهيدة.

(2) توفيت في العام 1938م.

المنفصل في الرياض، وكانت مصاعب الملك المحلية قد اكتملت بفراق ابنته العنود المحببة لديه (وكانت هي أكبر بناته، غير المتزوجات، على قيد الحياة)، وهي شقيقة محمد وخالد، وابنة أجمل زوجاته (جوهرة) التي لم يملأ أحد مكانها في قلب الملك إلا (شاهدة) بعد وفاتها عام 1919م. وحتى ذلك لم يتم بصورة كاملة إلا بعد مضي سنوات عديدة.

كانت العنود طويلة ونحيفة، وعلى شيء من الجمال وسرعة البديهة، وقد كان من المقرر أن تكون ولفترة وجيزة زوجة لابن عمها الأول سعود ابن سعد الوسيم لكنه كان دون الحجم المتوسط. وقد كان عمره آنذاك ثماني عشرة سنة، وربما كان عمرها هي حوالي الأربع عشرة أو الخمس عشرة سنة على أكثر تقدير.

كان علينا أن نقوم نحن ويوسف والبقية، في وقت متأخر من الظهيرة، حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة مساءً، وبعد صلاة الفجر بالركوب إلى الباطن للانضمام إلى مجموعة الملك. وبعد ذلك بنصف ساعة سوف يتم تقديم وجبة الغداء وسوف يتم تمضية الجزء المتبقي من فترة الظهيرة في الجلوس بشكل دائري والحديث بصورة عامة وربما جوفاء، وربما الخروج في جولة قصيرة على بساتين النخيل أو حول الوادي، في الوقت الذي يخلد فيه الملك إلى نسائه.

وبعد ذلك تحين صلاة المغرب، يكون بعدها المزيد من الحديث حول طبق من البلح، يليها العودة مرة أخرى إلى المدينة في سيارة الملك من نوع هدسون. وعموماً يكون أحد عشر منا داخل السيارة أو فوقها، وأحياناً نكون تسعة أو عشرة فقط ـ وهذا إجراء غير مريح حيث يكون أولئك الموجودون منا في الجزء الخلفي من السيارة مع الملك يجلسون بشكل غير مريح وكأنهم على رؤوس دبابيس لمكافأتنا بها بعد قليل. ومع ذلك لم يقم الملك أبداً بالاعتراض على عدم جلوسنا بارتياح معه في المقعد الخلفي الوثير. وليس مطلوباً من

المسلمين أن يتحملوا عدم الراحة الذي يكون من الممكن تفاديه أو لا يكون هناك داع له. ابحث عن الراحة متى ما كان ذلك متاحاً وتفاد فقط القيام جهاراً بارتكاب المحظور، ولا تفكر كثيراً في ذلك حتى ولو على أساس الذريعة أو الحيلة.

يذهب الملك عند وصوله إلى القصر مباشرة إلى أجنحته الخاصة، ونذهب نحن إلى السطح المخصص لاستعمالنا خلال الليل. وفي حوالي الساعة الثامنة مساءً نهبط إلى مصلى الملك الخاص، لنؤدي معه صلاة العشاء، ثم نصلي ركعتين كاملتين، تعقبهما ركعة كاملة على أساس السنة، ثم واحدة أخرى، ثم نذهب بعد ذلك إلى بهو ليس واسعاً للغاية بالطابق نفسه لقراءة تستمر لمدة نصف ساعة في الحديث والتفسير بواسطة الواعظ الملكي، وهو شاب ذو صوت جيد لكنه رتيب وممل، وقد كان لـه عموماً تأثير منوم علي، وقد قام بهزيمة أفضل جهودي التي بذلتها من أجل متابعة القراءة بالتفصيل. كانت المجموعة التي تحضر هذه القراءة عموماً ليست كبيرة للغاية، وكانت تجلس على كنبات خشبية عادية للغاية بتنجيدة قطنية رديئة ومتسخة للغاية. كانت القهوة تدور على فترات، ويقوم الملك بختم كل جزء من القراءة بعبارة (بارك الله فيك).

بعد انتهاء القراءة مباشرة يقوم الملك بالنهوض ويصل الاجتماع إلى نهايته. وأحياناً يقوم الملك فقط بصرف الاجتماع ثم يجلس لتصريف أي عمل يريد القيام به مع يوسف ياسين، أو ربما الشيخ العجوز الضرير (عبدالله العنقري) الذي كان موجوداً هنا خلال تلك الأيام، وكان يقوم بحضور تلك القراءات بانتظام.

كما هو واضح مما سبق، كانت الوجبة اليومية الوحيدة المنتظمة هي وجبة الغداء في قصر البديعة والتي يتم تناولها في وقت متأخر من الظهيرة. أما في الصباح الباكر فقد كانت تقدم وجبة إفطار خفيفة من الخبز والعسل والتمر واللبن

الرائب/ بينما يكون للواحد أن يطلب أيضاً الأرز واللحم اللذين كانا يتم ـ في كل الحالات ـ تزويد أهل البيت والخدم بهما.

وفي المساء ـ وقبل الذهاب إلى النوم مباشرة ـ يقوم كل منا عادة باستهلاك جرة كبيرة من لبن الإبل، وقد كانت عموماً، ومن أجل نوع جيد من (الريجيم) إنقاص الوزن، كافية للغاية لكل فصل الصيف، وكانت اللعنة الرئيسية في المكان هي الذباب الذي كان سيئاً خلال أشهر الصيف مثل سواه في فترة الشتاء، وقد يكون كارثة حقيقية لا شيء أقل من حملة منتظمة يمكنه القضاء عليها. من ناحية أخرى لم يكن هناك بعوض، وكان بمقدور الواحد أن يستمتع براحة جيدة أثناء الليل لا يتخللها أي نوع من الإزعاج أو المضايقة، بخلاف صلاة الفجر، مع ظهور بعض أنواع الذباب الرملي أو ما يشابهه، لكنه لم تكن بكميات كبيرة، وكان توجد على سطح القصر.

وكانت أكثر الأشياء غياباً عن قائمة الإزعاج بالنسبة لمدينة شرقية كبيرة، هي الكلاب والقطط، التي كانت توجد بكثرة في مدن الحجاز. وطيلة عشرة أيام (من ذلك الشهر شهر أغسطس)، لا أعتقد أنني شاهدت أكثر من قطتين في أرجاء القصر، في الوقت الذي قد أكون مررت فيه بنصف دستة من الكلاب خلال الفترة نفسها في جولاتي على السوق والشوارع.

ولاشك في أن صرامة الوهابيين هي السبب الرئيسي في الغياب النسبي للكلاب، إذ إن الأنواع التي شاهدتها كانت تبدو من نوع كلاب الرعي المصاحبة للضأن، التي كان مسموحاً بها هي الأخرى إضافة إلى كلاب الصيد مثل (السلوقي)، لكنني لا أستطيع أن أقترح سبباً معقولاً لندرة القطط. وقد تكون مخلفات البشر هنا من القمامة ضئيلة لدرجة أن الحيوان لا يجد فيها شيئاً ـ بل كانت حتى النسور والرخم نادرة هنا. ولربما كانت مطابخ القصر تقوم بتوفير الطعام لألفين أو ثلاثة آلاف شخص يومياً، وأن كمية الطعام ـ وخاصة لحم الضأن (وبكميات تحددها نوعية الضيوف) والأرز مع التمور والخبز ـ التي تقدم

أساساً في المضيف (أو استراحة الزوار) وغيرها من أماكن القصر الأخرى تعد كمية معتبرة ومقتدرة للغاية.

أما بالنسبة للفضلات، بعد أن يتناول كل الضيوف والخدم كفايتهم من الطعام، فقد كانت كبيرة نسبياً لكن شيئاً منها لم يكن يضيع أو يتم إهداره. ففي كل ساعة من اليوم كان بمقدورك أن تشاهد جمهرة من عشرين امرأة أو أكثر إضافة إلى عدد مساوٍ لهم من الأطفال، وهم يصطفون عند البوابة الخلفية للقصر يحملون سلطانياتهم ـ فالأطفال يحملونها على رؤوسهم عندما تكون فارغة كالخوذات ـ لكي تقوم كل واحدة منهم باستلام حصتها من فائض القصر. وقد لاحظت الشيء نفسه بطريقة أكثر تفصيلاً، في قصر البديعة.

كان الغداء يقدم للملك وضيوفه حوالي الساعة الرابعة والنصف مساءً، بعدها يتم تمرير الطعام للخدم الذين يأخذون كفايتهم منه. وفي هذه الأثناء حوالي الساعة الخامسة إلى الخامسة والنصف مساءً يتم تمرير الفضلات المتبقية من غذاء الملك وفضلات النساء، وبطريقة متبعة ومفهومة بصورة جيدة، لكي توضع على صوان مرتفعة ـ وفي ذلك الوقت يكون قد تبقى القليل ما عدا الأرز ـ أمام أولئك الرجال الموجودين حول القصر، من البدو المخيمين في الوادي، أو أعمال بساتين النخيل المجاورة، والزوار من الدرجة الأدنى، ولكن يحظر أن يحملوا معهم شيئاً عندما يغادرون، مع أنني قد لفت انتباهي، في إحدى هذه المرات، رجل كان يعبث بكميات الطعام الموضوعة أمامه وأمام الضيوف الذين كانوا معه وبطريقة غريبة للغاية وسط البدو الذين هم دائماً في حالة جوع.

وفي خلال لحظات بسيطة عرفت السبب في هذا التصرف. كان يخبئ تحت عباءته سلطانية كان يريد أن يملأها قبل أن ينهض من طاولة الطعام، وهذا ما نجح أحياناً في تحقيقه خلسة، ما أمكن، وإن لم يكن ذلك ليتم دون العديد من المناورات وافتعال الشغب الزائف الذي كان يمكن أن يضع جانباً في وسط الإناء الكبير قبضة اليد الصغرى من الأرز التي قام بتجميعها بالقرب من الحافة

استعداداً لوضعها داخل سلطانيته. وقد كان واضحاً أن تصرفه هذا يحظى بموافقة حارة من أولئك الذين يشاركونه في ذلك الطبق. وعندما يفرغ هؤلاء الرجال من طعامهم يتم جمع الفضلات بعضها مع بعض في اثنين أو ثلاثة صوان كبيرة ويقوم كبير خدم القصر بتوزيعها على الأربعين سلطانية أو أكثر، والتي تم جمعها سلفاً وبطريقة مريحة من مجموعة من الأطفال والنساء يتجمعون وحدهم على مسافة ليست ببعيدة عن مشهد الوليمة.

وفي خلال فترة وجيزة تكون كل السلطانيات قد نالت نصيبها العادل من فضلات الطعام، وحيث يكون الأخير قد نفد تماماً، عندما يتقدم أصحابها إلى الأمام، الواحد تلو الآخر، ليقوم كل واحد منهم باستلام حصته أو حصتها. ويتم القيام بكل ذلك من خلال إشراف وضبط كالطابور العسكري، وسيكون من الصعب، بعد انتهاء هذه العملية، أن يتم اكتشاف أي شخص جائع في المنطقة المجاورة. وعليه فلن يكون هنالك شيء قد تبقى لأي كلب سوى العظام، وعليه يندر، بالتأكيد، ظهور الكلاب في الصورة.

وفي السابع والعشرين من أغسطس حضر الملك مندفعاً إلى داخل غرفتي، يتبعه كل من يوسف وخالد، قبل أن أكون قد فرغت من حمامي الصباحي. وقد سمعت صوته يجيء منبعثاً من الممر: «أين فيلبي؟، فيلبي أين أنت؟»، وقبل أن أجد وقتاً لوضع الكوفية أو الغترة على رأسي كان هو عند الباب حاملاً معه تلغرافاً تم استلامه قبل قليل عبر الجهاز من الطائف، وقال: «اقرأ هذا»، فقرأت فيه الأخبار الخاصة باستقالة الوزارة البريطانية العمالية الثانية، والاتجاه لتشكيل حكومة ائتلافية للتعامل مع الأزمة المالية والاقتصادية التي حدثت بالوطن.

كنا نتناقش في هذا الأمر في اليوم السابق فقط بقصر البديعة، وحيث إنني لم أطلع على أي صحف بعد يوم 23 يوليو، حيث تسلمت آخر واحدة منها قبل مغادرة مكة، فقد كنت أوضحت له رأيي بأن هذا التطور هو شيء غير متوقع أو

وارد على الإطلاق. والآن وفي خلال أقل من اثنتي عشرة ساعة فقط وافتنا الأنباء بالأمر الواقع، وقد كان الملك مزهواً حيث كان أحياناً يعترض بقوة على نظرتي الأكثر ميلاً إلى الاشتراكية.

كانت الحياة الفكرية للقصر تمر بمد منحسر لعدة أيام. وكان هناك القليل من النقاش للمسائل الجوهرية المهمة، إضافة إلى تجاهل متعمد بالنسبة لكل المواضيع الاقتصادية والسياسية، مع قيام الملك بالوصول إلى تلخيص للموقف الأوروبي. يوماً ما تنبأ بحدوث حرب شاملة قبل انتهاء فصل الخريف وعليه فقد جاءت أنباء استقالة مجلس الوزراء البريطاني، مع ذلك، لتضع العجلات على محور هذا الدوران مرة أخرى. وفي المساء نفسه قام الملك، على سطح الأجنحة الملكية الخاصة بالقصر، بالتصريح إلى كل من يوسف وخالد وإلي معقباً على الموقف الراهن كما هو بين المملكة والقوى العظمة، قائلاً: «لا تفكروا لحظة أن أي جزء من العنصر العربي، في أي موقع من العالم العربي، لديه أدنى رغبة في إجراء أية تعاملات مع فرنسا أو إيطاليا، أو أية قوى أخرى صغيرة كانت أو كبيرة.

إنهم يريدون فقط لا غير أن يحصلوا على استقلالهم مقروناً بدعم بريطانيا العظمى وصداقتها. هذا هو الأساس. ولكن يبدو أن بريطانيا العظمى غير متفهمة لهذا الموقف. إنها تقوم الآن بدعوة كل الزعماء، إلخ، على الساحل من عدن إلى الكويت لكي تتناقش معهم عن كثب عن كيفية إدارة مصالحهم العامة تحت السيطرة البريطانية، كما أن لها أيضاً ترتيباتها مع كل من بادية الأردن والعراق. إذن لماذا لا تقوم بإرسال قنصل أو مندوب إلى كل الأقطار العربية (شريطة ألا يكون واحداً من الموظفين الرسميين العاملين في تلك البلدان بل يكون مرسلاً من لندن مباشرة، ويقوم بتمثيل الحكومة المركزية) ليتأكد كم يكون جميلاً أن يتم خلق عالم عربي موحد تكون فيه الصداقة البريطانية بمثابة المحور السياسي الرئيسي.

إنني أتعهد أن بمقدوري إعطاء هذا المندوب فكرة عن كيفية تحقيق هذا الغرض دون اللجوء إلى فرض أية تضحيات بالاستقلال المحلي لأية وحدة من وحدات العالم العربي. لكن إنجلترا لا زالت لديها إمبرياليتها التي توليها اهتمامها. ففي الوقت الذي تتحدث فيه عن منح الاستقلال للهند نجدها منهمكة في محاولة إيجاد اتحاد فيدرالي من الزعماء على امتداد الساحل العربي لتكون وحدة إمبريالية أخرى. وفوق هذا فهي تخشاني، فهي تعلم ما يمكنني أن أفعل إذا أصبحت عظيماً وقوياً يوماً ما.

لكنني أؤكد لكم أنني لن أقتطع بوصة واحدة من الحدود خارجاً مما أملك. ليس لدي مطلب تجاه العرب، وليس هنالك ما أخشاه من جانبهم. أنا قانع تماماً وراضٍ بأن أظل على ما أنا عليه وأن أخدم ربي وأرعى المصالح الخاصة ببلدي.

لقد كانت هذه ـ بطبيعة الحال ـ صرخة يائسة أكثر من كونها تصريحاً أميناً ونزيهاً ينم عن شعور شخصي. لقد رجعت عقارب الساعة بكل تأكيد إلى الوراء خلال السنتين الأخيرتين، وقد كان السبب في ذلك هو أن الملك قد ترك ليبقى بيد واحدة دون أن يكون هناك رجل واحد قوي وشجاع لمساعدته من خلال مواجهته بقول الحقيقة. وحتى يوسف فقط كان يردد الخطبة الملكية الطويلة، بينما كان خالد ـ وهذا شيء يعمله الله ـ يردد إدانته بأن الكثير من العرب في سوريا وغيرها لديهم تعطش شديد لأن يصبحوا تحت مظلة الحكم الوهابي، لو قامت القوى المغتصبة بإخلاء الطريق لذلك. بقيت صامتاً بعض الوقت، إذ أصبحت في الفترة الأخيرة متشائماً من قدرة الملك على الاستماع للحديث المكشوف.

وقد فكر الملك حينها أن ينتشلني من ذلك، لكنه قام بخنقي أو بضمي بمجرد بدئي بتطور النقاش، وأنه نتيجة للفشل في خلق علاقات دبلوماسية لصيقة ومباشرة مع ممثلي القوى العظمى في جدة قام بصرف النظر عن كل المميزات

(الخاصة بالتفاهم الوشيك) والتي وعد فيها بترفيع كل القنصليات إلى مرتبة المفوضيات.

«لماذا لا تتحدث إليهم، وخصوصاً للوزير البريطاني على وجه التحديد، بحرية من وقت لآخر وبطريقة غير رسمية في كل المسائل والمواضيع كما اعتدت أن تتحدث إلي عندما كنت أشغل منصباً مماثلاً معك؟». «ماذا؟ أتريدني أن أقول لهم أن مسئوليهم العاملين في الخليج الفارسي (العربي) ليسوا بأكثر من كومة من القذارة؟ إن الحديث بحرية عن مثل هذه المواضيع يقودني إلى أن أجعلهم يصبحون أعداء بالنسبة لي. إضافة إلى ذلك، ألا يكنون جميعهم كراهية بالنسبة لك بسبب تعلقك بي؟». مع ذلك، فهذا ليس هو محور كل المشكلات. فلم يكن بمقدور ابن سعود حتى الآن أن ينشئ علاقات شخصية تنطوي على التعاون الجاد والألفة مع الأجنبي داخل بوابته. وإن الواحد ليعجب أحياناً مما إذا كانت كل تقاريرهم وتوصياتهم لديها أية نزعة أو توجه مضاد للوهابية، مهما كان طفيفاً.

وتبقى الحقيقة الكامنة هي أن الملك الوهابي يقف وحيداً في مواجهة تناغم وانسجام القوى العالمية. ومع كل مرحه الشخصي وكرمه السخي، والبالغ درجة الإسراف وحدته العميقة، لا نجد له أي أصدقاء وسط الكيانات السياسية العالمية، بينما نجده لا يقابل بشيء، وسط عالمه الخاص، سوى الود والإطراء والمداهنة، وذلك يعود، بكل بساطة، إلى أنه يقوم في أحيان كثيرة بتحجيم الحقيقة وتثبيتها بسياط مشاكسته وسرعة غضبه.

ويبدو أن القضية العربية الكبرى قد صارت تنجرف إلى شفير أسوأ نوع من الأزمات ألا وهو الضعف السياسي والمعنوي. وكان هناك رجل واحد فقط بمقدوره أن يقوم ببذل كل الجهد الضروري واللازم لإنقاذها، وكان يبدو مكبلاً في الوقت الراهن وراقداً في سبات من الإحباط وعدم الحركة. ولم يحدث يوماً أن كانت الحاجة ماسة في المملكة العربية إلى القرار الحاسم، كما لم يحدث

يوماً أن كانت هناك المؤشرات القليلة عليه بهذا البعد والاتساع كما هو عليه اليوم.

وكان من أوضح المؤشرات الدالة على ضعف ووهن النظام الحاكم بصورة عامة في هذا الوقت بالذات تلك الطريقة التي تمت بها معالجة مشكلة جهاز الإرسال بالراديو. فبعد عدة شهور من وصول المهندسين والمواد لم يتم عمل شيء نحو تشييد المحطات المزمعة، وقد تم توجيه كل طاقات المعنيين بالأمر نحو توجيه الانتقادات، التي تنقصها الخبرة إلى أطقم الأجهزة المتنقلة. وفي هذه الأثناء عملنا على الحصول على تعليمات من فيصل مفادها أن يتم نقل اثنين من الأطقم المتنقلة إلى الرياض والاثنين الآخرين إلى الطائف.

وقد تم تنفيذ هذه التعليمات، وفي يوم 19/ أغسطس تم توصيل أطقم الأجهزة المتنقلة الموجودة بالرياض مع تلك الموجودة بالطائف. وقد تحركت المجموعة الموجودة بالطائف بطريقة كافية، من خلال حدث يعد تاريخياً، حيث قامت بإرسال العديد من تلغرافات التهنئة للملك، ولكن في الرياض (وبدلاً من الاستمرار في مواصلة العداء الكامن لهذه الاختراعات الشيطانية) كان الواحد يعتقد أن الاتصال باللاسلكي كان موضة رائجة لعدة قرون ـ ولم تصدر على أي مستوى كلمة واحدة من عبارات الشكر أو التهاني الملكية، أو حتى مجرد التعبير عن المواقف الملكية.

وحتى ذلك التلغراف الصحفي الذي قمت بنسخه لكي يرسل لصحيفة (الديلي هيرالد) والذي كان يعلن فقط عن ربط العاصمة الوهابية ببقية أنحاء العالم قد تم حجزه لفترة طويلة، لدرجة أنه لم تعد هنالك فائدة من إرساله بعد ذلك. وطوال تلك الأيام لم أسمع حتى بمجرد رضا أو استحسان عن التركيب الناجح لوسيلة الاتصال السريعة في بلد ظل يستعمل الجمال لفترة طويلة. وقد وجد أيضاً أن استعمال السيارات لنقل البريد هي أيضاً من المهام البطيئة بصورة قاتلة. وحتى لو حدث أن دخلت ذرة من الغبار في (الكربريتور)، أو أية مشكلة

صغيرة من هذا النوع يمكن أن يتعرض لها هذا النوع من المكائن، فقد كان يتم التصريح بصوت عال من جانب يوسف والملك بأن الجهاز المعني غير صالح للاستعمال.

وسيكون من غير المجدي أن نشرح لهم أن كلا الجهازين هما في الواقع بحالة تشغيلية جيدة في هذه اللحظة التي نتحدث فيها. وكان بمقدور جلالته أن يمشي سيراً على قدميه، أو يركب السيارة إلى القصر ليتحقق من صحة هذه الأقاويل، لكنه كان يفضل أن يثور ويغضب. وقد أصبح وضعي، وبكل مرارة، يزداد صعوبة أكثر فأكثر، ولم يكن هنالك من بد سوى أن أتمسك برأيي، الناجم عن معرفتي التامة، بأن الوقت كفيل بمعالجة كل هذه المصاعب والمشكلات المؤقتة، ومع أن هذه المشكلة الخاصة باللاسلكي ومجيئها بعد فترة قصيرة من وجهة نظري الجريئة، المتعلقة بالسؤال المحير الذي كان يتصل بالموقف المالي، قد جعل الاحتمال أكثر وأكثر ضعفاً بأن أستطيع التمكن من استعادة وضعي السابق بين مستشاري الملك (ولا أستطيع القول أنني كنت راغباً في ذلك).

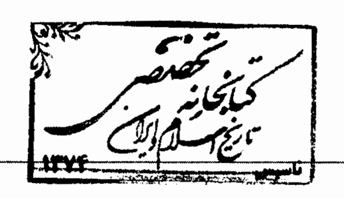
وحتى بدون أية صلاحيات رسمية فقد كنت في الواقع بمثابة عضو غير رسمي في المجلس الخاص للملك، لكنني قد تخليت عن هذا المنصب بنفسي لرفضي حضور اجتماع مهم كان معنياً بمناقشة الموقف النقدي والمالي بعد موسم الحج مباشرة، وكذلك لتغيبي عدة أحيان من مقابلات الملك المسائية.

كانت هذه هي الحياة خلال تلك الأيام المخيفة. وقد عملت على تخصيص صباح أحد الأيام لنفسي من أجل مباراة جيدة في صيد الفراشات في حديقة (عطنة Atna) الواقعة بين حي (القري) الجديد (وهو بستان نخيل عندما كنت هناك في الأعوام 1917 ـ 1918م) وحديقة الوسيطى والتي كان مقرراً إزالة نخيلها لإيجاد مساحة من الأرض لبناء المزيد من المساكن. وكان مقرراً أن

تكون حديقة (عطنة) هي موقع الجراج ومحطة اللاسلكي الجديدة. ولقد دهشت كثيراً لندرة الحشرات في الضوء خلال الأمسيات على سطح القصر، ولكن كانت هناك كميات كبيرة من الفراشات في البرسيم الموجود بحديقة (عطنة) ـ وكان أغلبها أزرق اللون من (نوعين أو ثلاثة أنواع) إضافة إلى عينات من النوع الأبيض ـ وبالإضافة إلى الجنادب أيضاً. وقد استمتعت بذلك الصباح وسطها، وقد قمت بتجميع حوالي سبعين فراشة، وحوالي الثلاثين أو أكثر من الجنادب.

في ظهيرة يوم 26/ أغسطس كان الروتين العادي قد تغير، إذ كان الملك مدعواً لتناول طعام الغداء بإحدى الحدائق بالطرف الغربي لسور المدينة. وقد كنا مدعوين هناك أيضاً في حرارة شمس الظهيرة. وقد كان نوعاً من التغيير الجميل أن يجلس الواحد في حديقة بدلاً من قصر البديعة، وقد كانت الوجبة وليمة عادية، وبعدها عرجنا على حديقة (العطنة) ليقوم الملك بمشاهدة الموقع الذي سيتم فيه تركيب محطة اللاسلكي. وهناك أدينا صلاة المغرب، وأكلنا من تمور (الوسيطى) في الوقت الذي قام الملك بإصدار أوامره بشأن بناء الأسوار والمعاقل الحصينة.

الروتين الذي ذكرته أعلاه خاضع لتعديلات جوهرية في أيام الجمع. فقد كان الملك يجلس ما بين الثامنة والتاسعة صباحاً في مقابلة خاصة بغرفة يوسف، ثم يذهب بعد ذلك للاستعداد لصلاة الجمعة في حوالي الساعة 11,30 إلى الساعة 11,40 في تلك الفترة. لقد ازداد عدد سكان الرياض وأصبحوا أكثر من استيعاب الجامع الكبير لهم، ومن ثم تم تشييد مسجدين لأداء صلاة الجمعة. وكانت أرضية الجامع الرئيسي المواجهة للقصر مرصوفة بالحصباء شأنها شأن كل أرضيات المساجد بالرياض، لكن الملك كان يحضر خطبة صلاة الجمعة في مصلاه الخاص، وهو غرفة طويلة ورقيقة مشيدة على سطح المسجد من زاويته الجنوبية إلى حوالي منتصفه على امتداد السور الجنوبي الغربي، وتتصل مع المبنى الرئيسي للقصر (الطرف الغربي) بواسطة جسر يستند على أعمدة.



وهناك كنا نتجمع أنا ويوسف وخالد مع الأتباع المقربين من الملك منذ حوالي الساعة العاشرة أو العاشرة والنصف صباحاً. وبعد أداء ركعتي السنة يجلس الواحد ليتلو القرآن، وقد كان ضجيج الأصوات المتنافرة رهيباً جداً. في هذه الأثناء يدخل الملك بصحبته أفراد أسرته (الذين عادة ما يكون بينهم منصور)، ثم يأخذ موقعه أمام المحراب الذي يعد امتداداً علوياً لمحراب المسجد الرئيسي الذي يميل بمعدل سبع درجات في اتجاه الجنوب الغربي، في الوقت الذي يجب أن يكون فيه الاتجاه الصحيح للقبلة (245 درجة) غرب الجنوب الغربي ـ وكانت هذه حقيقة قد أحدثت الكثير من الجدل والنقاش بيني وبين الملك في الشتاء، ولكنها لم تعد موضوعاً للخلاف، مع أنها كان من المفروض أن تكون مزعجة قليلاً بالنسبة للوهابي المتشدد لكي يقوم باستيعابها (هذا إن كان على استعداد لمواجهة الحقيقة) إذ إنه بدلاً من التوجه قبالة ذلك الجزء من الكعبة الواقع بين الباب والحجر الأسود (حسبما يجري الاعتقاد فيه، حتى بواسطة الملك) يكون في هذه الحالة مواجهاً لنقطة بعيدة للغاية في الشمال من مكة، ولكنها ليست بعيدة للغاية عن جنوب المدينة.

وبعد قيام الملك بأداء ركعتي السنة يقوم بالانضمام إلى المجموعة القائمة بالتلاوة، ويستمر الضجيج إلى حين صدور أولى نداءات المؤذن فيحل السكون فجأة على كل الجمع من فوق ومن تحت. وتعلن أصوات المؤذن، المنطلقة من حنجرته القوية، الدعوة إلى الصلاة، وبعد أن يقوم بذلك يحتل صوت الخطيب، الذي يلفظ عباراته وكأنها صادرة من أنفه، وهو يتلو الخطبة، وبعد أن يفرغ منها، يقوم بترديد الصلوات العادية المختارة، وبعدها يتم ترديد الإقامة بواسطة شخص جهوري الصوت، وبعبارات تبدو في نغمة خطابية.

يلي ذلك ركعتا صلاة الجمعة، التي نقوم بعدها بصلاة ركعتي السنة، ثم نجلس جانباً إلى أن يكون الملك قد فرغ من ابتهالاته المطولة نوعاً ما. وبعد الفراغ منها يجلس الملك لفترة وسط جموع المصلين لاستقبال الزوار، وبعدها

يأخذ الجمع حريته في التفرق، إذ يذهبون للغداء والنوم، أو تمضية فترة الظهيرة بأي شكل من الأشكال.

يقوم الملك في أيام الجمع عادة بتسجيل زيارة للمقبرة الكبيرة، وهي واحدة من مقابر عديدة تقع قريباً بجوار العاصمة، ويبدأ تاريخها اعتباراً من فترة حكم فيصل، الذي يبدو أنه أوّل واحد في الأسرة المالكة يتم دفنه بها، بينما دفن والده تركي في المقبرة القديمة الواقعة خارج السور الشمالي وبوابة الظهيرة. وتحتل المقبرة الجديدة مساحة كبيرة في الجانب الشمالي من البطحاء، وليس لها بوابة أو سور، الشيء الذي تنجم عنه نتيجة مرة تكمن في تدنيس القبور أحياناً بواسطة الكلاب واللصوص.

وفي الجمعة الثانية لوصولي رافقت الملك في هذه الزيارة. وعند وصولنا إلى المقبرة بالسيارة تركنا أحذيتنا خارج حدود المقبرة وقمنا بالجولة، وأقدامنا تؤلمنا من الحفى، وكان مطوع أو إمام القصر - ويدعى الشيخ محمد بن حمد الفارس - يعمل دليلاً للملك، ويذكر لـه أسماء أصحاب القبور التي يجب زيارتها بصفة خاصة. ومن بين ما ذكر عن زيارة القبور هي أن الرسول [قد أذن بزيارتها من حين لآخر بوصف ذلك نوعاً من تذكير الأحياء بمصيرهم المحتوم، مع أن أي اتجاه لتقديس الأبطال الذين فارقوا الحياة، وهم تحت التراب، يعد محظوراً بشدة في الأعراف والتقاليد الخاصة بالوهابيين - فهل يعي كل المشايخ والزعماء والروحيون بالرياض، أحفاد الشيخ محمد بن عبدالوهاب العظيم وأتباعهم الدرس. ودائماً ما تدهشني قبور هؤلاء المشايخ في تأثيرها الروحي الواضح على الملك الذي لاشك أنه كان يعد هؤلاء الأولياء الصالحين بمثابة نزلاء الجنان، دون أدنى شك، جزاء لهم على ما قدموه من عمل صالح في هذه الحياة الدنيا.

وكانت القبور الأخرى هي قبر والدته، وابنه فهد (توفي عام 1919م) وابنه الأكبر الذي كان ولياً للعهد، تركي (توفي عام 1919م)، وبالقرب منه قبر زوجته

الجميلة جوهرة (توفيت عام 1919م)، والتي كانت يوماً ما ملكة لكل هذه الصحراء. وهناك أيضاً والده عبدالرحمن في قبر يحظى بالعناية نسبياً ـ ولم يكن أي من هذه القبور يشتمل على شواهد حجرية أو نصب، لكن بعضها محاط في أطرافه بكتل من الحجارة المرصوصة أكثر من غيره ـ وهناك، ليس ببعيد، عن قبر فيصل بن تركي يوجد قبر ابنه الأكبر وخليفته عبدالله في مواجهته. وهناك إحدى زوجاته المتوفيات، والدة فيصل، نائب الملك في الحجاز، وهكذا إلى أن عدنا مرة أخرى بالسيارة وامتطيناها ذاهبين إلى بعض الروابي القريبة من كهف (المخروق) لتزجية الوقت حتى مغيب الشمس، حيث صلينا المغرب وشربنا القهوة بمنزل الشمسية الريفي الخاص بسعود العرافة. كان سعود بن فيصل بن عبدالرحمن، وكثير غيرهم من أفراد الأسرة المالكة تقع قبورهم بالمقبرة القديمة، حول تركي، بالقرب من الموقع الأساسي والأصلي الذي شيدت عليه مدينة الرياض في أوّل نشأتها، حيث بئر وحديقة (حجر اليمامة).

وبعد يوم أو اثنين لاحقاً قابلت رجلاً وهو يذهب إلى المقبرة لآخر مرة، عندما كنت في طريقي عبر حي القرى الجديد إلى المستوصف الصغير الذي بدأ بالعمل هنا في عام 1929م، والذي أثبت سلفاً وجود أكثر من مبرر لقيامه، إذا كان بمقدور الواحد أن يحكم على هذه الأشياء من خلال سجل حضور المرضى. ولقد رتبت مع الدكتور أحمد ياسين والصيدلي، دكتور نديم، بأن أسجل لهما زيارة بموقف عملهما، وقد وجدتهما بكل تأكيد في حاجة ماسة لها. وكان المريض الذي يتم الكشف عليه في تلك اللحظة هو أحد أفراد حاشية الملك. فصافحته، واكتشفت عندما جلست على المقعد الذي أخلاه لي على سبيل الاحترام، أنه أصيب بداء الزهري الذي أصيب به قبل عشر سنوات وهو بالكويت، وأنه قد تمت معالجته منه هنا في مكة، مع أن هذه هي أوّل زيارة لـه لمستشفى الرياض. وقد شاهده وهو يحقن جرعة كبيرة من (النيوسالفرسان Neo sal varsan) في وريد ذراعه، بينما صرفت لـه مادة ليقوم بدهنها على البثور

الحقيقية، ثم انصرف بعد أن أعطيت له تعليمات بالعودة لتلقي حقنة أخرى بعد أسبوع.

وخلال تلك السنة (تقريباً من 15 ديسمبر إلى 15 يوليو، أي لمدة سبعة أشهر) كان العدد الإجمالي للمرضى قد بلغ 9,780 مريضاً، أي حوالي 1ر400 مريض في الشهر الواحد، بمعدل يومي يقل قليلاً عن الخمسين مريضاً. مع ذلك فقد سجلت الأرقام ارتفاعاً مزعجاً في شهر ربيع الأول نتيجة للانتشار الواسع للحمى dengue الدنجية[1]. وقد وصل العدد خلال الفترة ما بين 16 يوليو حتى نهاية أغسطس إلى حوالي 3,320 مريضاً، أي بمعدل سبعين مريضاً في اليوم.

أما بالنسبة لداء الزهري فقد حصلت على أرقام خلال ثلاثة أشهر توضح إجمالاً وجود 193 مريضاً بالزهري من بين العدد الإجمالي للمرضى الذين زاروا المستشفى خلال تلك الفترة والبالغ 3,840 مريضاً، أي بمعدل تقريبي 5٪[1]. وقد كان من أسوأ كوارث البلد أمراض السل والجدري (مع بعض الحالات الطارئة من الدنجية)، بينما أتاحت مشكلات العيون بأنواعها المختلفة الفرصة للطبيب ليقوم عملياً بممارسة كل الأعمال الجراحية التي كان مستعداً لمزاولتها.

وبالتأكيد لم يكونوا يعانون أي نقص في الأدوية والتجهيزات، لكن الوقت لم يكن حان بعد لقيام مستشفى كامل بالرياض، ويعزي ذلك كثيراً للكدر الذي أصاب الدكتور أحمد ياسين، والذي شارف عقده الثالث على الانتهاء، والذي لم يكن بحاجة لأن يقول إنه يعتزم قضاء بقية حياته في الرياض.

تواصل روتين الحياة الممل لفترة ما بعد الظهيرة بقصر البديعة، وقد بدأت

(1) وتسمى حمى الدنك، حمى استوائية تنتقل بالبعوض وتسبب أوجاعاً شديدة في المفاصل والظهر. (المحرر).

(1) يمكن اعتبار هذه أول إحصائية لعدد المترددين على أول مستشفى في الرياض استمدها المؤلف من سجلات المستشفى الذي قام بزيارته تمثل أنواع الأمراض الأكثر انتشاراً وشيوعاً في تلك الفترة. (المحرر).

أحس بالتعب من جرائه بعض الشيء، عندما بدأت بعض التغييرات الطفيفة تفرض نفسها. فعلى سبيل المثال قبل الملك، في أحد أيام الظهيرة، دعوة لتناول طعام الغداء في إحدى الحدائق الواقعة غرب مدينة الرياض، وفي مرة أخرى قام بعد تناول وجبة الغداء بالبديعة، بعد الظهيرة، بالذهاب إلى إحدى الحدائق المجاورة التي يطلق عليها (المحطة)[1]، والتي اشتهرت بكونها كانت موقعاً للدفاعات التي قذف بها بواسطة وهابي الدرعية من القرن الثامن عشر، لمقابلة هجوم قوات نجران تحت قيادة حسن بن هبة الله، والتي تم هزيمتها من حدوث مذبحة كبرى في الحائر[2]، والتي سميت بذلك نتيجة لتبخر برك الدماء في منحدراتها.

وتوجد في هذه الحديقة شجرة تين كبيرة، ويفترض أنها تعود إلى عصور قديمة، وكانت فاكهتها بسيطة في ذلك الموسم، مع أن الملك كان يذكر أنه شاهد فيها قبل سنة أو سنتين فاكهة التين ذات الحجم الكبير المليئة بكمية وافرة من العصير. وكانت بعض أشجار النخيل القديمة (أقصى عمر لشجرة النخيل هو 150 سنة) قد تم جرفها واقتلاعها من بذورها بواسطة الفيضانات التي تمت حديثاً، وقد تم الاستبدال هنا وهناك بواسطة غرس أشجار صغيرة، لكن الحديقة كانت أشبه بالغابة منها بأي شيء آخر، وكانت أشجار الفاكهة ـ الخوخ والتفاح والكمثرى ـ قد ازدحمت متجمعة بعضها مع بعض في غير ترتيب. وفي يوم آخر قام الملك بعد الغداء بالتوجه إلى إحدى الحدائق في أعلى الوادي على الضفة الشمالية، والعائدة (لابن مطرف) وهو أحد تابعيه المقربين. وقد بدت جذابة للغاية بسيقان أشجار النخيل الطويلة النامية فوق أحد حقول الذرة التي كان يتم زراعتها وقطعها بغية استعمالها علفاً للحيوانات.

---

(1) المحطة: نخيل عامرة ما زالت ماثلة، تقع في غرب مدينة الرياض، وقد غرست منذ أيام الإمام عبدالله بن فيصل. معجم مدينة الرياض لمؤلفه خالد السليمان ص 212. (المترجم).

(2) انظر تفاصيل المواجهة بين قوات الدرعية وحشود قبائل يام في هذا الموقع لدى ابن بشر عنوان المجد.

وقد كان ابن مطرف، مع أنه قد أصبح رجلاً عجوزاً الآن، فإنه لا يزال سليماً ومعافى، وقد كان فيما مضى هو حامل راية الملك. وكان جلالته دائماً يطلق عليه بكل عطف عبارة (يا عم). وقد قام في العديد من المعارك بحمل راية العلم الملكي، وكان بجسمه كثير من الجروح يظهرها دليلاً على ما تحمله من آلام. وكان ابنه، وهو شاب نحيف وقوي البنية وحسن المظهر وذو شعر أسود قليل التجاعيد قد تعلم قيادة السيارة قبل أربع أو خمس سنوات، ليصبح الآن في خدمة الملك أحد سائقيه[1].

وامتداداً لعدة كيلومترات صعوداً وهبوطاً من البديعة كان الباطن مشتولاً على كل جنبيه ببساتين النخيل التي تنمو على تلك التربة من الطمي التي يتم ترسيبها بواسطة الفيضانات والسيول الموسمية. وهم يقولون إن الفيضان قد جاء منحدراً في هذه السنة ما لا يقل عن أربعة وعشرين ضعفاً، إذ استمر في مرة أو مرتين وهو يتدفق لمدة يومين دون توقف. وفي بعض الأجزاء كانت ضفة المجرى قد بنيت بقوة بالكتل الصخرية من الأحجار الجيرية المقطعة من المرتفعات، كما كان وسط المجرى مفروشاً بالرمل والحصى، وقد كان وادياً جذاباً، وكان آنذاك مليئاً بخيام البدو.

وفي كل البساتين لم يكن هنالك ما يفوق حديقة البديعة التي غرست بأشجار النخيل عندما كنت هناك قبل أربعة عشر عاماً مضت. ويبدو أنها كانت ملكاً للأمير سعود الذي كان يدعي ملكيته لعدد (1,200) فسيلة نخل كانت جميعها في أقصى درجة من الخصوبة. وفي الطرف البعيد من الحديقة، الذي يبعد عن أشجار النخيل، كانت توجد البئر التي ركب عليها سعود ماكينتين قوة ثمانية أحصنة من نوع (بيتر) مع مضخات دوارة تعمل بسيور، وذلك بدلاً من الحمير أو الجمال التي كانت يوماً ما تمشي صعوداً وهبوطاً على (المجر) «أو

(1) ولا زال حمل الراية السعودية في المناسبات الوطنية إلى اليوم يتوارثها أبناء عائلة ابن مطرف. (المحرر).

المنحى» المهجور. وباستعمال صفيحة من الكيروسين كل ثماني ساعات تعمل هاتان المضختان بصورة تبادلية لمدة عشرين ساعة في اليوم خلال أشهر الصيف الحارة عندما تكون أشجار النخيل في حاجة ماسة للري.

وهناك جزء من الحديقة مغلق من الجزء الرئيسي صمم بستاناً للفاكهة، حيث زرعت فيه أشجار الخوخ والكمثرى الخ، مع أن كل محاصيل الفاكهة لم تكن ناجحة هذه السنة كما أوضحت سابقاً. وفي أحد الأيام تم استدعاؤنا بعد صلاة المغرب، عندما كان الملك يريد أن يتناول بعض التمور التي كانت موضوعة أمامه وهي في مرحلة بشائرها الأولى ـ حيث كان يقوم بأكل واحدة أو اثنتين، ثم يقوم بغسلها بماء الباطن العذب ـ مع الجمار أو قلب شجرة النخيل، الذي، يؤدي قطعه بالطبع، إلى موت الشجرة ـ ومن ثم كان الأمر غاية في المتعة والرفاهية، ممزوجاً بشيء من هشاشة نبات الكرفس Celery، إضافة إلى شيء آخر سار ويصعب تعريفه، ولكنه عموماً ذو مذاق حلو.

كان باب الحديقة دائماً يترك مغلقاً، نوعاً من التحذير لسيدات القصر وخدمهن ووصيفاتهن كي لا يراهن الرجال، عندما يتم السماح لهم بالدخول بصورة عفوية، ودون تحذير، كما يحدث أحياناً بالنسبة لنا، فقد كنا نراهن يقفزن عبر المروج المخضرة هروباً من غزو الرجال. لكن أوراق النباتات قد كانت كثيفة بما يكفي لاختبائهن بصورة مريحة، مع أنه قد حدث في مرة أو اثنتين عندما قام ابن سعود بتنظيم مباراة شبيهة إلى حد ما بلعبة التخفي مع عبد نصف أعمى ويحمل عصا من جريد النخل وهو يطارد البقية، دون أي طقوس، وبطريقة عشوائية، إلى أن يمسك بشدة. حدث لي، ولا شك للآخرين، أن مررنا بمجموعة متفرقة من أسراب النسوة المحجبات.

لقد دهشت دائماً من شيء غريب، ألا وهو عدم استفادة الملك من هذه الحديقة الجميلة سواء بالنسبة لجلسات الظهيرة العادية الخاصة به، أو عندما يكون مع نسائه، لكنه قد أصبح معتاداً وبشكل رتيب على الحياة داخل المنزل،

لن تساعده هذه الرتابة، بكل تأكيد، على تحسين صحته. وقد لا يكون الأمر أكثر من نقص في الطاقة حتى يجعله يقرر القيام بعمل شيء مختلف عن الروتين اليومي. وفي مناسبة أخرى تمت دعوة الملك لتناول الغداء، بعد الظهيرة كما جرت العادة، بواسطة العديدين من أفراد أسرة السديري الذين تربطهم علاقة قديمة مع عائلة آل سعود ناشئة عن شبكة من الزيجات بينهما، وقد كانت إحدى زوجات الملك حالياً إحدى بنات أحمد السديري، وهو رجل كبير خفيف الروح، وكان منذ فترة طويلة من الزمن واحداً من أخلص مؤيدي الملك.

وقد تم إرسال سيارة (أو أكثر) حديثاً إلى منزله في (الغاط) في منطقة سدير (التي استمدت منها الأسرة اسمها) لإحضار الرجل الكبير لزيارة ابنته في الرياض. وترحيباً بمقدمه تم عمل هذه الوليمة الريفية للغداء بحدائق الأسرة في المصانع، وهي إحدى الواحات الفرعية التابعة للعاصمة. لقد كانت بكل تأكيد حديقة جميلة بتعريشات كرمها وأشجار خوخها الضخمة الواقعة تحت أشجار النخيل الطويلة السامقة خارج الحشائش والأعشاب التي نشرت فوقها هذه المأدبة على قطعة ضخمة من القماش الأبيض.

وقد أحضر الرجل الكبير معه اثنين من أبنائه الصغار، وقد كانوا في مثل سن أبناء الملك من زوجته السديرية ـ فهد وسلطان ـ وأحد أبناء أخيه من الأميرة السديرية، ويدعى عبدالله، وهو ابن أخيه محمد، التي أصبحت زوجته المطلقة، زوجة للملك وأماً لفهد. وقد تبدو المسألة معقدة لحد ما، إلا أن الشؤون الخاصة بالزواج بالنسبة للأسرة المالكة الوهابية تعد غاية في التعقيد والتشابك.

ومن بين الذين كانوا حاضرين تلك المناسبة الشيخ المشهور (عبدالله بن زاحم) الذي يبدو أكثر شبهاً بأحد الكهنة منه بأحد كبار المشايخ، لكنه مع ذلك كان محارباً عقدياً وشجاعاً. وقد مررنا أثناء الطريق من الباطن إلى المصانع بالقرب من أملاك محمد بالعتيقة، وهي حديقة الشيخ عبداللطيف (التي ذكرها

بلجريف) الذي قام ـ مع ذلك ـ بوضعها على أساس أنها تقع شمال الرياض بدلاً من جنوبها أو جنوبها الشرقي! . وقد ذهب الملك في انجذاب صوفي وراء ابن الرجل الأصلي الذي قام بغرسها، عبدالله، وهو يعد من أعظم مشايخ العصر الحديث، وقد كان حكيماً في نصائحه السياسية، وكأنه قد نال دراسة في المذهب الصوفي. وهو الذي كان دائماً اليد اليمنى للحاكم الصغير السن طيلة تلك الفترة الصعبة والمبكرة من صعوده نحو العظمة.

وقد اعترف الملك، ليس بامتنان فقط، وإنما بشجاعة، خلال مروره بالحديقة، التي كان الرجل العجوز يمضي فيها أحياناً بعض الوقت للاستراحة من حرارة النهار، بأنه قد وجد على الدوام أن حكمه كان صائباً وأن مشورته كانت تتسم بالحكمة. وقد ظل هذا القطار من الأفكار يدور بخلد الملك وذاكرته طيلة فترة الظهيرة، وقد تحدث جلالته عموماً عن المثل والقيم الإسلامية. وأياً كانت نقاط الضعف في الشخص، سواء كانت أخلاقية أو غيرها، فبمقدور الشخص أن يبقى دائماً من المؤمنين الصادقين وأن يطمع في رحمة الله في الدنيا والآخرة، لكن هناك شيئين يخرجان الشخص عن الإسلام ـ إشراك أي كائن أو مخلوق مع الله في العبادة، وإتيان المعصية عمداً (المجاهرة بالمعصية أو التباهي بها).

ومع ذلك فعندما تم في مصر مواجهة أحد مشائخ نجد بإحدى الممارسات التي لا تتماشى مع عقيدة الوهابيين ومذهبهم، وطلب منه الإدلاء برأيه عنها أجاب قائلاً: لو كنت سأقوم بفعل ما أراكم تفعلونه، فيجب أن أعد نفسي كافراً. لكنني مع ذلك لا أطلق عليكم صفة الكفار، لأنكم تقومون بما تقومون به عن جهل، بينما لو كنت أنا أفعله فسأكون على علم بأنه خطأ.

والمصانع هي مساحة شاسعة من أشجار النخيل في الطرف الجنوبي لواحة الرياض يقوم، بشطرها المجرى الرملي لوادي حنيفة، عن مجموعة حدائق منفوحة الواسعة الواقعة شمالاً. وفي هذه النقطة يتخلل الوادي سد من

الحجارة الصلبة المقواة بدعامات حصينة في أماكن متفاوتة لكي تقوم بتصريف مياه الفيضانات إلى داخل بساتين منفوحة و«المصانع». وقد قام الملك مؤخراً بشراء أحد هذه البساتين بمبلغ 21,000 ريال ـ وقد كان ريال (ماريا تريزا) في تلك الفترة أقل بكثير من التسعة عشر بالنسبة للجنيه الإسترليني ـ وذلك لتقديمه هدية لمنصور وأمه.

كانت قرية «المصانع»، التي لم تكن كبيرة أبداً، تبدو بالنسبة لي ضئيلة في حجمها، بينما كانت قرية منفوحة ـ وهي من مخلفات إحدى المدن الكبيرة، حسبما يذكرها التاريخ العربي، والتي كانت أسوارها الضخمة ما زالت بارزة خارج مساحة كبيرة من الخطوط المتقاطعة للحطام والأنقاض ـ تبدو، وكأنها قد وصلت إلى مثواها الأخير. وقد كانت تبدو مهجورة، وهي بالفعل مهجورة أو شبه مهجورة، فالتعريف يبدو مثيراً على قدر بساطته. ففي الأيام الغابرة كان على كل الناس أن يتجمعوا سوياً بالمدن والقرى للحصول على الحماية المشتركة ضد عدم توافر الأمن، ولذلك قاموا بتشييد الأسوار وحافظا على صيانتها.

أما الأمن المتاح الآن فقد نجم عن تقلص بساتين النخيل وزحفها مع ما نتج عنه من قيام مجتمع القرية الذي صار الآن قانعاً بمدينة الرياض كأكبر مركز للتسوق والتجارة يمكن زيارته بحسب الحاجة. أما بالنسبة للبقية فقد كانت كل أسرة مكتفية ذاتياً باستقلالها الزراعي وفقرها، ولم تكن تبحث سواء عن التحول ـ الاجتماعي أو عن التطور المادي أو المعنوي. وكان الطعام والماء هما الحد الأدنى للبقاء. وفيما عدا ذلك كان الرجل يبحث عن الزوجة لتقوم بتسليته وإنجاب الذرية لـه ـ لن يعود عقلي خلال هذه الفترة إلى إعادة ذكر فشل حكومة ابن سعود في مواجهة الأزمة المالية أو التحكم فيها، مع ما أدت إليه من نتيجة مريرة أصيبت فيها التجارة والأعمال في البلد بالموت والشلل.

وقد كانت النقطة المضيئة الوحيدة ـ بكل تأكيد ـ هو عزم الملك وتصميمه الواضح (وربما حكومة الحجاز أيضاً، أن اقتصادها الأساسي قد أصبح عاجزاً

عن سداد مديونياته، ومن ثم عدم مقدرته على شراء البضائع بالآجل كما كان يحدث سابقاً)، وتصميم الملك على الاقتصاد في النفقات حتى النهاية. لقد كانت دلائل التقشف في الرياض أكثر وضوحاً من أن يتم تجاهلها أو إغفالها. وحتى المطبخ الملكي مر بأيام عصيبة، وصارت الوجبة المقدمة منه أدنى بكثير من المستوى الرفيع العادي (رغم بساطته). كان الماء يضاف أحياناً إلى اللبن بنسبة 50٪، أما التمر الذي كان يتم إحضاره على مساكننا فقد كان (دون وجود أي مبرر لذلك) لا يتعدى أن يكون فضلات العبيد الذين مر بأيديهم.

كان كل مظهر من مظاهر التقشف ـ رغم ذلك ـ مقبولاً. وبمناسبة هذا الموضوع فقد حدث في إحدى الأمسيات (12 سبتمبر 1931م)، وبعد صلاة العشاء، أن كنا مجتمعين مع الملك فوق سطحه الخاص، وعندما كان يتحدث عن البريد الصادر إلى الأحساء، سررت وأنا أسمعه يملي رسالة طويلة إلى عبدالله بن جلوي، كانت تجمع في أسلوبها بين الدعاية والأمر، فأجابه عن بعض استفساراته حول موضوع النشاطات الخاصة بالتقشف، والتداخل العام فيما يتعلق بوظيفة ومسؤوليات البعثة المعنية حديثاً لمراقبة الإيرادات العامة في الأحساء، والمكونة من الشيخ محمد الطويل وإبراهيم بن معمر. فكما قال الملك إن الأحساء، في واقع الأمر تحكم بطريقة اقتصادية مذهلة، حيث كانت المصروفات الشهرية الإجمالية للإدارة بكاملها لا تزيد على 15,000 ريال من فئة (ماريا تريزا) ولكن النظام يعد شيئاً ضرورياً.

وقد قام ابن سعود وهو يملي هذا الجزء من الرسالة بعرض نفسه كسيد حقيقي للموقف إضافة إلى كونه حاكماً بالفطرة والمولد. وقد ترك لعبدالله بن جلوي القيام بتحديد العلاوة الشهرية المخصصة له ولأسرته، وأن يتم سداد المبلغ الذي يجري تحديده شهرياً له من الخزينة دون أدنى استفسار، وألا يكون خاضعاً لأي تدقيق أو أي نوع آخر من التحري أو التحقيق.

أما بالنسبة لتكاليف الضيافة فيجب ـ مع ذلك ـ توفيرها بواسطة الخزينة

العامة، ويكون الأمير مسؤولاً فقط عن التأكد من أن الطعام المقدم يجب أن يكون بالمستوى المطلوب. يجب أن يقدم للزوار من البدو كثير من التمور والأرز والسمن (أو كما كان يطلق عليه عبارة (دهن)) والقهوة بالنسبة لكل خمسة أشخاص أو مائة أو ألف شخص، وأن يقدم اللحم طبقاً للطريقة المعروفة أو المتبعة ـ لا شيء منه للناس الذين لا أهمية لهم، وأن يخصص الخروف للمجموعة التي تستحق ذلك، والتي تكون كبيرة بما فيه الكفاية، وأن يخصص الجمل لمجموعة كبيرة تكون مرافقة لأحد الزوار المعتبرين والمهمين. ومن ناحية أخرى فإن الضيافة لغير البدو، يجب أن يتم ضبطها بواسطة الإدارة المالية، ويجب أن يتم توزيعها في اثنين من بيوت الضيافة، أحدهما بالنسبة لكبار الضيوف، والآخر بالنسبة للخدم وأولئك الذين لا أهمية لهم. وفي كل الحالات فإن حق الضيافة يجب أن يكون قاصراً وبشدة على الثلاثة أيام العادية، باستثناء أولئك الذين لديهم أعمال غاية في الأهمية.

وعلى سبيل المثال أملى الملك: «فإن ضيافة الأيام الزائدة لفلان وفلان (قالها وهو يذكر اسم أحد الزعماء البدو) تكلف 2,000 ريال، في الوقت الذي لا يجب أن تزيد ـ بكل تأكيد ـ أكثر من 50 إلى 200 ريال».

وعليه فقد قام بكل مهارة واقتدار، وبأقل قدر من الإزعاج الفعلي بفك طلاسم الخلط الذي كان سائداً بين النفقات العامة والخاصة، والذي كان مظهراً من مظاهر الإدارة الشرقية القديمة، ممهداً بذلك الطريق للإصلاح مستقبلاً، دون أن يقوم بجرح مشاعر واحد من رجال المدرسة القديمة المخلصين للعرش، والذي قام بتقديم خدمات جليلة في الظروف السابقة وما زال يتابع المسارات المتعرجة الجديدة لأساليب الإدارة الحديثة.

لكن الملك، بعد كل هذا، دعاه ألا يقوم بفعل شيء لم يكن قد قام به سلفاً في الرياض للمصلحة العامة للدولة. لقد كان ابن سعود هو سيد الموقف ورجل مهنته عندما يقوم بالتعامل من الشؤون الداخلية للمملكة العربية وشعبها

الذي كان مجال دراسته في هذه الحياة. وقد كان يحس بخيبة أمل فقط عندما يفقد أرضيته السليمة في الإلمام بالجوانب الاقتصادية والمالية الغربية.

تم تعديل روتين الظهيرة بالبديعة بتغيير طفيف ليومين متتاليين في هذه الفترة، حيث تم وضع اثنين من عبيد الحاشية (أو الأحرار) للقيام ببعض حركات المهرج الشديدة البراعة والتي جعلت الجميع يغرقون في الضحك، حيث إنها كانت مسلية حتى بالنسبة للطبقة الراقية من المشاهدين. ففي البداية قام الاثنان بتمثيل دور شجار الكلاب بواسطة نفس الحركات العادية للكلاب في تلك الحالات (لكنها لم تكن فاحشة للغاية)، وقد كانت مصحوبة بكثير من النباح والعواء، ثم تغير المشهد بعدها حيث قام الممثلون بدور الحمار والرجل الضرير، لكنه لم يكن أصيلاً أو مسلياً للغاية. وإذا كان بمقدوري أن أقترح أنه، إذا لم يكن هذا النوع من التسلية محرماً، فإنهم يمكن أن يجدوه متوافراً بطريقة أفضل في الخارج أو حتى في الأفلام، التي يمكن أن تفرض عليها رقابة، تقوم برفض السماح بدخول أي شيء غير سليم!

وفي المساء نفسه عندما كنا نجلس على السطح، بعد صلاة المغرب، سمعنا من على بعد صوتاً من أصوات غناء البدو، وقد صعق الملك بشدة لدرجة أنه قام بإرسال اثنين من تابعيه الأوفياء للبحث عن صاحبه وجلده (أو طقه)، الشيء الذي حدث فعلاً بدليل صرخات الألم البعيدة التي كانت تمثل قمة الموقف. قال صاحب الجلالة: «إذا أرخى الواحد جانبه قليلاً، فلم يكن بمقدوره أن يعلم إلى أي مدى سيذهب الناس. ففي الأمسية السابقة قام ابن فضلية بالبدء في أغنية عندما كنا راكبين في طريق عودتنا من البديعة، ولأننا لم نول اهتماماً كبيراً بهذه المخالفة، فها هي يتم تكرارها للمرة الثانية. إن الشيطان بكل تأكيد، ما زال متيقظاً من أجل إيقاع بني البشر في حباله!».



الفصل الثالث

الريـاض
بيـن الماضي والحاضـر
1379 هـ/ 1959 م



الرياض بين الماضي والحاضر[1]

قبل مائة عام مضت لم يكن هنالك أي أوروبي شاهدت عيناه مدينة الرياض، مع أن الكابتن جي. إف. سادلير قد مرَّ قريباً منها في عام 1819م من الناحية الجنوبية وهو في مسيرته من منفوحة إلى الدرعية، عاصمة الوهابيين الأصلية التي قدر للرياض أن تحل محلها بعد فترة قصيرة.

ولربما كان الاعتقاد السائد آنذاك أن يظل المعقل الرئيسي للمذهب التطهري باقياً على حاله إلى الأبد دون أن يطاله الفضول الغربي، وهو يقبع خلف هذا الحاجز الرملي الذي لا يمكن اختراقه، إضافة إلى بعض الأجانب والتعصب الديني. ومع ذلك فقد حدث في تلك الفترة نفسها أن أغري أحد الشبان البريطانيين من العهد الفكتوري المبكر ليقوم بمغادرة شواطئ تلك الجزر المعزولة متأثراً بالروايات الرومانسية الخيالية الخاصة بالأسفار لكل من (ألكساندر دوماس) و(جولوس فيرن) وغيرهما، وهي حكايات بُنِيَت في

(1) نشرت هذه المقالة في مجلة الشرق الأوسط «Middle East Journal» المجلد 13، ربيع 1959م. وهذه المقالة هي آخر مقالة علمية يكتبها فيلبي عن العاصمة الرياض.

الغالب، إذا جاز لنا التعليق، على المعلومات العلمية المتاحة آنذاك، أو على تقارير العديد من المغامرين الذين ولجوا البلدان المجهولة.

وإنه لمن البديهي أن العملية كان يمكن أن تشكل انتكاسة عكسية، وخصوصاً إذا ما كان محورها هو الخيال!

وعلى أية حال لم يأخذ الأمر وقتاً طويلاً قبيل سقوط القناع وتمزقه إرباً إرباً لكي يكشف عن الأسرار الخاصة بوسط الجزيرة العربية إلى عالم يسوده الحيرة والإعجاب. وخلال الستة أشهر الأخيرة من عام 1862م قام السيد دبليو جي. بلجريف أثناء رحلته، بدءاً من مدينة غزة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، بالمرور عبر قلب الجزيرة العربية، حتى مدينة القطيف على الخليج العربي[1]، وقد قام بتمضية خمسين يوماً (وهي في الواقع ثمانية وثلاثون يوماً حسب روايته هو) في مدينة الرياض ذاتها.

وقد ولَّد وصفه للرحلة نوعاً من الإثارة العميقة، وأكسبه شهرة سريعة (حتى مع التشكيك الذي لا يستهان به من جانب بعض الخبراء المختصين، وبخاصة العالم المستعرب جي. بي. بادجر) بوصفه أحد المغامرين الأبطال الذين قلَّ أن نجد لهم مثيلاً في مجالات الاستكشاف[2]. وبعد سنوات قليلة من ذلك، وفي عام 1865م، كانت هناك بعثة رسمية بريطانية بقيادة السير لويس بلي، والذي صار لاحقاً فيما بعد المندوب البريطاني المقيم في الخليج العربي - وقد سافرت البعثة في رحلة من الكويت إلى الرياض وبالعكس، حيث قضت فقط بعض الأيام القليلة في عاصمة الوهابيين، أمضتها في إجراء محادثات مع

---

(1) لقد سبق أن أشرت إلى أن الكُتَّاب الغربيين يطلقون على الخليج اسم الخليج الفارسي وهي تسمية اعتادوا عليها منذ القدم، وهم بذلك يجانبون الحقيقة فهو عربي أكثر منه فارسي. ولذا فقد قمت بإحلال لفظة الخليج العربي بدل الخليج الفارسي أينما وجدت. (المحرر)

(2) عن رحلة بلجريف إلى الرياض وما دار حولها من نقاش عن وصفه لمدينة الرياض انظر بحثنا عن هذا الموضوع المنشور في مجلة التوباد المجلد الأول العدد الرابع شوال 1408هـ/ يونيو 1988م. (المحرر)

الإمام العجوز فيصل بن سعود وولي عهده عبدالله الذي تولى العرش بعد وفاة أبيه بعد ذلك بأشهر قليلة[1].

وقد انقضى حوالي نصف قرن قبل أن يأتي إلى الرياض أحد الرحّالة الأوروبيين الآخرين. وقد كان ذلك هو الرحّالة الدنمركي (باركلي رونكير)، الذي أمضى في المدينة أقل من 48 ساعة، وذلك في مارس 1912م[2]. وفي ديسمبر من العام نفسه أمضى الكابتن جي. إيه. ليخمان ـ الذي قدم من دمشق ـ أسبوعاً في القصر في ضيافة ابن سعود قبل أن يغادر الجزيرة العربية عبر مدينة الأحساء التي كانت واقعة تحت الاحتلال التركي. وأخيراً، وفي ربيع عام 1914م كان الكابتن دبليو. إتش. آي. شكسبير، الذي أصبح لاحقاً مندوباً سياسياً لبريطانيا في الكويت، قد أمضى ثلاثة أيام في الرياض أثناء رحلته الطويلة من الكويت إلى السويس.

وعند نشوب الحرب تم إرساله مرة أخرى إلى ابن سعود لكنه اغتيل في يناير 1915م في المعركة التي دارت رحاها في (جراب) بين الأخير وقوات ابن رشيد. ويجب ألا ننسى أيضاً الزيارة القصيرة التي قام بها إلى عاصمة الوهابيين في صيف عام 1917م الدكتور بول هاريسون، ذلك المبعوث الطبي الأمريكي المشهور في الخليج العربي، والذي وُجهت إليه الدعوة من قبل ابن سعود لمعالجة بعض الحالات المرضية التي يعانيها أفراد الأسرة المالكة[3].

هذه هي القائمة الكاملة بالأوروبيين الذين سبقوني إلى الرياض التي وصلت إليها في الثلاثين من نوفمبر 1917م، أي بعد خمسة وخمسين سنة

(1) قام بترجمة هذه الرحلة إلى اللغة العربية كل من الدكتور عبدالرحمن الشيخ والدكتور عويضه الجهني بعنوان «رحلة بلي إلى الرياض» طبعت في مطابع جامعة الملك سعود. (المحرر)

(2) ترجم هذه الرحلة من اللغة الإنجليزية إلى العربية منصور محمد الخريجي بعنوان «عبر الجزيرة العربية على ظهر جمل» مكتبة العبيكان بالرياض 1419/ 1999م. (المحرر)

(3) لم تقتصر معالجته لأفراد الأسرة المالكة بل قام بعلاج كثير من الناس من سكان الرياض وخارجها ولعله أول طبيب أوروبي يقدم إلى الرياض في عهد الملك عبدالعزيز. (المترجم)

بالضبط من مغادرة بلجريف لها. وسوف يكون من الأفضل أن نوضح، ومن خلال ما ذكرته أعلاه عن رحلاتهم العديدة، وباستثناء حالة واحدة فقط، أن أياً منهم لم يجد الوقت الكافي للقيام بتحريات واسعة للمدينة وما جاورها. ولم يحاول أي منهم أن يقدم للعالم شيئاً سوى وصف هزيل للقصر.

أما الاستثناء الوحيد فقد كان بطبيعة الحال هو بلجريف نفسه الذي لا يمكن بالتأكيد أن يتهم بالشح في إبراز المعلومات التاريخية والاجتماعية، بل حتى الجغرافية. وعنه كتب الدكتور دي. جي. هوغارث، الذي يعد مرجعاً في المعارف العربية في عصره، في كتاب التغلغل في الجزيرة العربية (The penetration of Arabia) (ص 301)، والذي نشر في عام 1905م ما يأتي: «أقام بلجريف في الرياض خمسين يوماً .. وإدراكاً منه للمسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه العلم في تلك المنطقة التي يصعب الوصول إليها أكثر من الأماكن الأخرى، فقد قام بإحداث نقلة فيما يتعلق بوصف الظواهر الطبيعية والاجتماعية وتعريفها. وقد تم تأييد دقة الوصف الطبوغرافي العام الذي قام به للمنطقة في تقرير خلفه بلي».

إن هذا الحكم الجدير بالاحترام. وحتى مع النقد والتشكيك المعروف الذي صدر من قبل ريتشارد بيرتون، وجي. بي. بادجر وآخرين يعدون مؤهلين جيداً لأن يكون لهم رأيهم فيما توصل إليه بلجريف، لكن الحكم هو الذي ظل مسيطراً في الواقع على المسرح لحوالي سبعين سنة حتى عام 1919م، عندما ظهرت أنا مستأنفاً ضده بالعديد من الأدلة والبراهين الجديدة المؤيدة والداعمة للادعاء القديم.

وخلال سنتي الأولى في الجزيرة العربية أمضيت سبعين يوماً في الرياض، كما شاهدت جزءاً كبيراً من بقية الإقليم، وكلما شاهدت أكثر أصبحت أكثر تشككاً في مصداقية بلجريف وموثوقيته. وفي نهاية المطاف توصلت إلى خلاصة مفادها أنه، وفي الوقت الذي كانت فيه كامل قصته ـ ومع وضع كل الاحتمالات

في الحسبان ـ ليست بأكثر من تلفيق متعمد، فإنه وبكل تأكيد لم يسبق لـه أن زار الرياض على الإطلاق! وعلى مدى سبعين سنة كان العالم قانعاً بخداعه بصورة مزيفة بالكامل عن الجزيرة العربية (جنوب القصيم) وعن عاصمة الوهابيين.

وفي اعتقادي أن هذا هو الرأي السائد في الدوائر الرسمية حالياً، وقد تم التعبير عنه بكل وضوح وبصورة لا لبس فيها في أحدث المسوحات الأخيرة للاكتشافات العربية للسيدة (جاكلين بيرن A La de couverte de L'Arabia) والذي تم نشره في باريس في السنة الماضية. ولا مجال هنا للاسترسال في هذه النقطة أكثر من ذلك[1].

لقد كان الوصف الذي أورده بلجريف لمدينة الرياض عام 1862م، وبصورة مثيرة للسخرية، لا ينطبق على مدينة الرياض عام 1919م، أو بعد عشرين سنة لاحقة. ومع ذلك فالضرورة تقتضي قول كلمة من باب الاحتراس وهي: قد يقول زائر حديث لعاصمة المملكة العربية السعودية وبكل إنصاف الشيء نفسه عن كل أوصافي للمكان قبل نهاية الحرب العالمية الثانية. فليس هنالك بالتأكيد أي تشابه بين مدينة اليوم الواسعة الضخمة والمدينة الصغيرة الضيقة المحصورة ذات الأسوار، والتي تم استخدامها خلال الأربعين عاماً المنصرمة مقراً رئيسياً لابن سعود العظيم أثناء حملاته الخاصة بإخضاع الجزيرة العربية وتوحيدها.

وإنه لمن الجدير بالأهمية أن نتذكر أن تلك المهمة قد تم إهمالها بكل دقة وصدق في كل وقت لم يكن يملك فيه أياً من المال أو الأسلحة أو الجيوش

(1) مات فيلبي وهو الوحيد الذي استمر على رأيه في التشكيك في مصداقية رحلة بلجريف وهذا الرأي لا يخلو من التطرف ولا يستغرب أن يستشهد بالسيدة الدكتورة جاكلين بيرين فهي صديقته وشريكته في كثير من الآراء، وظلت كذلك إلى حين وفاتها في أواخر الثمانينات أو مطلع التسعينات، ولم تكن آراؤها حول رحلة بلجريف إلا صدى لآراء زميلها السيد فيلبي. وقد ترجم قدري قلعجي كتابها المشار إليه بعنوان «اكتشاف جزيرة العرب».

المدربة، أو حتى الأصدقاء الذين يقدمون لـه العون والمساعدة عندما يكون بحاجة إليها. لقد قام بتحقيق أهدافه فقط بعزيمته القوية، وإيمانه الذي لا يتزعزع بمقاصده وتوجيهاته، ولم يحدث إلا بعد تحقيق كل ذلك حتى قام هو شخصياً بأخذ زمام المبادرة نحو إرساء أسس دولة الرفاهية، التي لم يكن بحلم بها أحد، بالنسبة لمملكته الصحراوية.

أما فيما يتعلق بأوصافي التي أوردتها للمكان القديم ونظام الحكم القديم الذي أحببته جيداً، والذي ما زلت آسفاً على انقضائه، فإنني أمتلك ميزة على بلجريف (الذي لم يعد قط إلى الجزيرة العربية)، وهي أنني أمضيت بقية حياتي في ذلك البلد أشاهد وأسجل، خطوة خطوة، عملية التغيير التي بدأت أولاً بصورة تدريجية ومتأنية لكنها اندفعت لاحقاً بسرعة متزايدة لا تعرف التمهل، وهي التي مكنت من تحقيق ملامح التغيير وإنجازاته ومشاهده التي تنبري اليوم للترحيب بالزائر. وهي التي ما زالت بعيدة جداً عن بلوغ مرحلة الاكتمال، ولا أحد يدري إلى أي مدى سوف تصل. لكن العمران، والعمران النشيط والمتواصل هو طابع اليوم، وهذا دون أن نقول شيئاً عما يصاحب ذلك من عمليات هدم للمنازل التي تم تشييدها على الطراز القديم (من اللبن) وإزالتها لكي نفسح مكاناً لتشييد العمائر الضخمة من الخرسانة والحصى على النسق المعماري الغربي نفسه.

أما بالنسبة للمباني المتلاصقة، فهي تسير قدماً منتشرة على طول الطرق الإسفلتية الممتدة في أعماق الصحراء، وفي كل الاتجاهات، مع أعداد لا حصر لها من الطلبات بالنسبة للمواقع السكنية التي تم تخطيطها سلفاً خارج مسافات بعيدة من وسط المدينة، مما يوحي بالثقة الظاهرة أن المشكلة الرئيسية والمهمة المتعلقة بإمدادات المياه سوف تجد طريقها إلى الحل بصورة جذرية عما قريب. ومع ذلك فإن الشيء الذي يسترعي انتباه المراقب أكثر في هذا البرنامج التنموي هو سرعة الانطلاق أكثر من الحقيقة أو الواقع، ومن ثم يمكن للواحد أن يقول،

وهو يتحدث معه حاكم جزيرة جيرسي، إن أمانة مدينة الرياض تحاول أن تنجز كثيراً جداً وبأقصى سرعة!.

وأياً ما كان الأمر، فقد كانت المدينة المسورة في بداية عهدي بها (انظر الخريطة الموجودة في كتابي (في قلب الجزيرة العربية) ـ ص ـ (70)) ذات أبعاد تبلغ (700) ياردة من الشمال إلى الجنوب، وحوالي (650) ياردة من الشرق إلى الغرب. وهي محاطة ببساتين أشجار النخيل الرائعة من كل جوانبها عدا الجزء الشمالي الشرقي حيث يمتد السور الشرقي على طول طرف وادي البطحاء، بينما يتاخم الجزء الشرقي من السور الشمالي تلك المقبرة الكبيرة التي يرقد فيها كل من الإمام تركي، الذي قام بتبني الرياض عاصمة للدولة الوهابية بعد أن تم تدمير الدرعية على يد إبراهيم باشا عام 1818م، وحفيده سعود بن فيصل، في قبريهما المهملين.

وفي اتجاه الشمال من المقبرة يقع شريط طويل آخر من بساتين النخيل الغنية، في الوقت الذي تنتشر فيه أيضاً المزيد من البساتين من الجانب الأيسر، أو الشرقي لضفة وادي البطحاء، وتسير في عمق معقول باتجاه الشرق، بينما هناك شريط من الأرض الخالية تقع أكثر بعداً في اتجاه الجنوب على ضفة الوادي نفسه، حيث تم تخصيصها لتشكيل مقبرة ملكية جديدة عند وفاة الإمام فيصل في عام 1865م، والذي يرقد هناك مع كل أحفاده الذين فارقوا الحياة منذ ذلك الحين.

وباستثناء بعض المساكن القليلة والمتفرقة والمتوسطة الحال، على وجه التحديد قصر الشمسية الخاص بحفيد فيصل، سعود الكبير (الذي ما زال على قيد الحياة)[1] والواقع على بعد ميل من المدينة، وسط بساتين النخيل المحيطة، لم تكن هنالك أية مساكن لأهالي مدينة الرياض خارج المدينة المسورة نفسها،

(1) توفي عن عمر يبلغ (76) سنة، بينما كتب هذا المقال في 24/ 2/ 1959م.

والتي أذكر أن سكانها كانوا لا يتجاوزون، على وجه التقدير، (30,000) نسمة.

لم يتبق اليوم إلا القليل من ذلك الحزام الأخضر الكبير الذي كان يحيط بالمدينة. فقد عمل الأمن الذي قام بتوفيره ابن سعود إضافة إلى توحيد الجزيرة العربية على جذب البدو وغيرهم من العناصر الأخرى إلى داخل العاصمة التي وجدوا فيها ما طمأنهم، وأكد لهم وجود الكرم التقليدي من جانب الأمراء، والرعاية الطبية لعلاج أمراضهم المختلفة (مثل الرمد، والدرن وما شابهها)، بالإضافة إلى حلقات الوعظ الديني التي تقام في المساجد على أيدي أنصار المذهب الوهابي الشجعان.

وقد امتدت الزيارات القصيرة التي تم التفكير بها في بادئ الأمر وتوسعت بصورة لم تكن في الحسبان، لتصبح إقامة طويلة الأمد مع تنامي فرصة التوظيف المثمر والمربح في المشاريع الإنشائية وغيرها من الأعمال. وحضر البدو ومعهم خيامهم المصنوعة من الشعر، وشيدوا حولها أسواراً من الطين لتقيها من الرياح، ثم قاموا بعدها بتسقيف الجدران لخلق مخيمات. وسرعان ما انتشرت القرى الصغيرة قريباً بجوار أسوار المدينة الواقية، ثم تحولت سريعاً إلى ضواح، في الوقت الذي صار فيه سكان الرياض الميسورو الحال يبحثون عن متنفس لهم خارج الأحياء المكتظة التي كانوا يعيشون فيها، وذلك من خلال التوسع خارج الأسوار.

وقد كان هذا التوسع على حساب بساتين النخيل، وارتفعت قيمة الأراضي بصورة حادة حتى تجاوزت قيمة ما تم جَنْيه من محصول التمر، وصارت أشجار النخيل تقطع دون رحمة، لكي تفسح المجال لتشييد المساكن. وفي تلك الأيام لم يطرح السؤال بالبحث عن متنفس من هذا الزحام في الأراضي الصحراوية الواسعة الواقعة خلف بساتين النخيل، فما زالت التقاليد القديمة والبالية تفرض على الغالبية ذلك التوجس الحذر من التعرض الذي لا داعي له لأي هجوم محتمل قد يشنه الأعداء.

وعليه فقد تمت التضحية بروعة الحزام الأخضر من أجل إسكان الأعداد المتزايدة دوماً من البشر الذين جاء أغلبهم في هذه الفترة من أطراف مملكة ابن سعود. ولم يكن الاجتياح الأجنبي قد بدأ بعد، وحتى أولئك الأجانب الموجودون بالرياض كان يترتب عليهم التكيف الصارخ مع الطريقة الوهابية في الملبس والتصرف.

وكان ابن سعود نفسه هو الذي بدأ بإطلاق عملية التنمية في هذه الصحراء عندما انتقل في عام 1938م إلى خارج المدينة ليقيم في قصر جديد تحيط به القلاع، كان قد تم تشييده لـه على موقع إحدى التلال الصغيرة المحيطة والتي تعرف باسم (المربع)، والتي تقع قريباً من قصر ابن عمه في الشمسية. وكان يوصله بالمدينة طريق معد من الخرسانة للسيارات. وفي المدينة كان القصر القديم الخاص بكل من تركي وفيصل لا يزال مستخدماً مركزاً للإدارة والحكم، كما كان عليه سابقاً، ودون أن تطرأ عليه أية تغييرات بالنسبة للأشياء المحيطة به مثل الجامع الكبير والسوق اللذين ما زالا على مقربة منه.

وفي هذه الأثناء قام ولي العهد، الملك الحالي، بتشييد قصر لنفسه في (المربع)، في الوقت الذي أضيف إليه قصر آخر فسيح لاستخدامه استراحة لإقامة الضيوف الملكيين. وقد أتبع ذلك الأمير فيصل بتشييده قصراً لنفسه على الطريق المعبد الواقع بين المربع والمدينة مع أنه لم يسكنه على الإطلاق، إذا تم أخذه هو الآخر استراحة ملكية إضافية. وفي تلك الأيام تصادف أنه لم يكن هنالك شخص يقوم بزيارة الرياض إلا بتصريح من الملك، وكان كل الذين قاموا بزيارتها هم من ضيوف الملك.

وبعد انتهاء الحرب مباشرة، وعندما شب الجيل الأول لما بعد الحرب من أبناء الملك عن الطوق، واستقروا في حياتهم الزوجية تم تشييد حوالي العشرين تقريباً من القصور الملكية ذات الطراز المتماثل لسكناهم في أحد الأحياء الجديدة الذي يطلق عليه اسم (الفوطة)، وقد كان ذلك على حساب بساتين

النخيل المحيطة بقصر المربع من الجانب الشمالي الغربي للمدينة. في كل هذه الخطط العمرانية تم التمسك بصورة صارمة بطابع العمران النجدي التقليدي، وقد استمرت المدينة المتوسعة في الحفاظ على لب الثمرة التي تفرعت منها إلى الخارج، لتغطي مساحة تبلغ عشرة أضعافها على الأقل، وبعدد سكان يقارب ضعف عدد سكان المدينة القديمة.

وقد استجاب الحائط الغربي ببوابتيه للضغط الناجم عن اقتراب العمران باتجاه حلقة من الأرياف غير المتميزة تم تشييدها خلف حزام بساتين النخيل بواسطة النازحين الذين جاؤوا من الأقاليم بحثاً عن فرص العمل. ومن ناحية الجنوب الشرقي أيضاً أزيلت بعض بساتين النخيل الجميلة لتفسح المجال أمام توسعة رئيسية للمدينة لتضم الورشة الملكية، وورش صيانة السيارات، إضافة إلى الإرسال الإذاعي الجديد (التي تم تشييدها في عام 1931م) كذلك نمت إحدى الضواحي الكبيرة على الضفة الشرقية لوادي البطحاء من أجل مقابلة وتلبية متطلبات عنصر جديد من السكان يتمثل في سائقي السيارات والميكانيكيين الوافدين من العديد من البلدان المسلمة الذي اجتذبوا للحضور إلى المملكة العربية السعودية نتيجة الأجور العالية التي كانوا يحصلون عليها مقابل خدماتهم.

هذا بالإضافة إلى الفرص غير المحدودة التي تتيح لهم مكتسباتهم من خلال السرقة والاختلاس.

وختاماً نقول إنه كان تجمعاً لا يبعث على السرور، وإنه كان بمثابة جرح ينزف في جانب مجتمع، كان في ذلك الوقت وعلى كل مستوياته، نموذجاً للأخلاق الفاضلة والمستقيمة. ولم تستطع الحكومة السعودية إطلاقاً أن تفرض عليها احترام النظام والأمن الذي هو بمثابة حجر الزاوية في الدول المتحضرة.

تلك كانت هي الرياض في فترة الشفق وعتمة الليل لفقرها البدائي المدقع، وبين إطلالة الفجر المفاجئة لرفاهيتها التي لم يكن يحلم بها أحد. فالنفط بطبيعة الحال قد كان اكتشافه سلفاً في الأحساء، لكن استغلاله قد كان

قاصراً بصورة صارمة على المتطلبات السياسية الحربية للحلفاء. ومع ذلك فقد كان الأمل في المستقبل مشرقاً بصورة معقولة، مع أن أحداً لم يكن يتوقع آنذاك بأن هناك احتمالاً أن يصل إلى ما وصل إليه من تألق. ولم تجد عائدات الأرباح الأساسية الأولى طريقها إلى الخزينة السعودية إلا في عام 1946م. وقد كانت مصادفة عجيبة أن يقوم ابن سعود في بداية تلك السنة نفسها، وبعد أن كان قد زار مصر في عام 1945م للاجتماع بكل من روزفلت وتشرشل، بقبول دعوة الملك فاروق له بتسجيل زيارة رسمية إلى مملكته.

ولم يكن بمقدوره أن يفشل في المقارنة بين البحبوحة التي يعيش فيها ذلك البلد مع الفقر والتخلف الذي ترزح تحته مملكته، وهو شيء ظل قانعاً به طيلة حياته. واستناداً على ذلك قرر أن التقدم والتطور هو سنة العصر، فبدأ بمدينة الرياض نفسها، والتي قرر وصلها عن طريق السكك الحديدية بأحد الموانئ الواقعة على الخليج العربي، مثلما ترتبط القاهرة بميناء الإسكندرية. وفي عام 1945م أهدى لـه الرئيس روزفلت طائرة (داكوتا)، وقد تمكن بصعوبة من إقناع السلطات التقليدية للعاصمة بمشروعية استعمالها في تطوير وسائل الانتقال داخل البلد.

وعليه فقد تم إنشاء مطار مناسب في مدينة الرياض على بعد مسافة معقولة من المدينة. وقد وافق القادة الدينيون على ذلك، ومن ثم ذاب الجليد على الفور، ولم يكن هنالك من سبب آخر معقول للاعتراض على ذوبانه مرة أخرى بواسطة قيام خط السكك الحديدية. لكنه كانت قد واجهته الآن بعض اعتراضات الخبراء الاقتصادية ضد مشروعه العالق بذهنه، وهي أن خط السكة الحديد لن يتمكن من تغطية تكاليفه قط، وأن البلد لم تكن قادرة على تحمل مثل هذه الرفاهية، وغير ذلك. لكنه وضع كل ذلك جانباً، وأصر على إعطاء الأسبقية المطلقة للمشروع.

وفي أكتوبر 1951م كان على قناعة تامة عندما ترأس شخصياً الاحتفال

الرسمي بافتتاح الخط (550 كيلومتر)، وذلك بوصول أوّل قاطرة من الدمام. وعليه فقد تم التحقق وبكل نجاح من سلامة رؤيته المستقبلية. وقد تحسن الوضع الاقتصادي في الرياض، وبصرف النظر عن الاعتبارات الأخرى. نتيجة انخفاض تكلفة نقل كل البضائع والمستلزمات الضرورية. ومن ثم أصبح من المؤكد أنه لولا وجود خط سكة الحديد لكان تطوير مدينة الرياض وتحديثها يعد مستحيلاً تماماً، أو في أفضل الظروف ليس بأكثر من مشروع خيالي لمستقبل لا أحد يستطيع التكهن به.

وحتى لو لم يعش ابن سعود ليشهد الازدهار الكامل لمشروعه فهو قد خلف على الأقل لمن يأتي بعده إرثاً يشتمل على مفتاح الأرض الواعدة. وقد كان سعود نفسه مستعداً لذلك بصورة جيدة من خلال الأسفار الخارجية التي قام بها حديثاً (إلى مصر والهند خلال الحرب، وإلى الولايات المتحدة بعد الحرب) الشيء الذي مكنه من استيعاب فرص تحقيق النمو وإمكانيته في بلد تأكدت قدرته حالياً على توفير السيولة الكافية لجعل الصحراء (تتفتح كالزهرة). وحتى هنا توقف الأنموذج الخاص بتحويل الصحراء عموماً نتيجة لتحول إعجاب العالم بالتنمية اليهودية في فلسطين. لكن سعود بن عبدالعزيز سرعان ما أثبت أن الأمر ليس مجرد مشروع، بقدر ما هو ـ في غاية البساطة ـ متعلق بالمواد المالية. وكان يحظى بتذوق خاص للمباني ذات الطابق الأنيق والحدائق المنمقة، وكان لا يزال ولياً للعهد عندما أشرف على أوّل تجربة تتعلق بتطوير مدينة الرياض وتحديثها. وكان يقع على بعد أميال غرب المدينة بئر وحديقة الناصرية البالغ مساحتها أربعة أفدنة، والتي كانت المنتجع المفضل للملك في جولاته خارج المدينة أثناء فترة ما بعد الظهيرة.

وقد قرر سعود أن يشيد هنا عقاراً يتلاءم مع منصبه الرفيع وآرائه الطموحة. فحفرت مزيداً من الآبار العميقة في الجوار حيث كانت نتائجها مدهشة، وتمت زراعة أشجار الفاكهة وأشجار الزينة، المستوردة من أمريكا

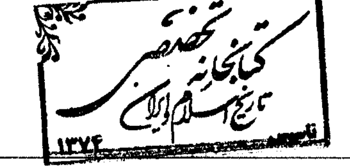
وغيرها من بلدان العالم، على أيدي خبراء البساتين الذين جلبهم من الهند وبخارى. وسرعان ما بدأ خبراء التشييد القادمون من الهند وسوريا في العمل على وضع القواعد الخرسانية الضخمة لقصر ملكي ضخم من طابقين. وفي خلال سنة أو سنتين كان ولي العهد يقوم باستقبال ضيوف والده القادمين من شتى أطراف العالم وبقاعه. وكان معظمهم من بلدان يتناقض شظف العيش، الذي عانت منه بعد الحرب، تماماً مع الكرم الشخصي للصحراء العربية!

وسرعان ما تحولت حديقة البئر الصحراوية الصغيرة التي كانت مخصصة لزراعة البرسيم والقليل من أشجار النخيل بسرعة مذهلة إلى منتزه تبلغ مساحته مائة فدان من المروج الخضراء والأزهار اليانعة، والطرقات والممرات المشجرة، والأكواخ ذات الشجيرات المزهرة، وبيوت زراعة البرتقال وبساتين الفاكهة والغابات المزروعة بأشجار الزينة، هذا بغض النظر عما تحويه من أحواض السباحة، وملعب التنس وغيرها من النشاطات الترويحية. وكان يوجد بها أيضاً، وبجوار القصر نفسه وحوله، مسجد ومدرسة أنيقة لأطفال الأسرة المالكة، بالإضافة إلى (استاد) لكرة القدم مجهز بمدرج للنظارة وكل ما يلزم.

وفي مرحلة لاحقة بعض الشيء تمت إضافة إحدى حدائق الحيوان إلى منتجعات حدائق القصر، لكي تستقبل بدورها أحد كبار الزوار القادمين إلى الرياض جواً، وقد كان هذا الزائر أسداً من إفريقيا!

لقد تناولت الناصرية بشيء من التفصيل، لأنها تمثل بلا شك الخطوة الأولى التي اتخذت قدماً نحو تطوير مدينة الرياض وتحديثها. وقد أدى قيامها إلى ضرورة الشروع في عمل طريق يربطها بقصر المربع والمدينة من خلال «أوتوستراد» عريض من مسارين يفصله في الوسط خط من المساكب. ومنه يتفرع طريق جانبي آخر يؤدي إلى محطة السكة الحديد من أحد اتجاهاته، بينما يؤدي إلى المطار من الاتجاه الآخر.

وفي هذه الأثناء تفرع من هذه النواة للشوارع الرئيسية مزيد من الشوارع



الحديثة التي انتشرت في كل الاتجاهات حول المدينة القديمة؛ وعبرها وإلى خارجها باتجاه القصر الصيفي في البديعة، وفي الممر الرئيسي لوادي حنيفة، وإلى غيرها من الحدائق والقصور الأخرى الخاصة بالأمراء، التي سرعان ما برزت فجأة على هذا النمط الذي شيد عليها قصر الناصرية. ولاحقاً بعض الشيء شمل البرنامج الطرق الإسفلتية الواسعة التي جعلت الآن من الرحلة إلى الدرعية والخرج شيئاً ممتعاً، بدلاً من المعاناة التي كانت عليها أيام الصحراء القديمة. وقد تم البدء حديثاً في عمل الطرق التي سوف تقوم تلقائياً بربط الرياض بكل من مكة والخليج العربي، بصرف النظر عن المراكز السكانية الوسيطة الواقعة على امتداد هذه الطرق. ولكن مشروع مد خط السكة الحديدية إلى مكة، عن طريق محافظة القصيم، والمدينة وجدة كان هو الشيء الوحيد الذي واجه تباطؤاً في تنفيذه، في الوقت الذي ظلت فيه مشكلة إصلاح خط سكة حديد الحجاز بين المدينة ودمشق ـ ودون أدنى مبرر ـ من المشكلات العالقة، بعد أن كانت تحظى بالاهتمام الفعلي لأكثر من ثلاثين عاماً. وقد بدا أن الاتجاه يميل إلى تفضيل الطرق البرية على السكك الحديدية.

إن كيفية معالجة الوسط التاريخي للمدينة القديمة تعد بلا شك أمراً يتطلب قدراً كبيراً من الاهتمام والعناية، إذ كان واضحاً أن عدم ملاءمة شوارعها الضيقة والمتعرجة لحركة المرور تمثل مشكلة حقيقية. ولكن من الغريب حقاً أن أوّل ما خضع لعملية الهدم وإعادة الإصلاح من قبل سعود كان هو الجامع الكبير الذي يمثل حجر الزاوية في التاريخ الوهابي والذي يعد كذلك مماثلاً لعقلية الوهابيين، بسقفه المسطح ومناراته القصيرة، وهو الذي أسند إليه أبوه، بوصفه ممثلاً للأجيال القادمة، مهمة تحديث العاصمة السعودية وتطويرها.

وقد شرع في البداية (بتجزئته إلى أجزاء) كخطوة أولى نحو تحديثه. وقد تم هدم المسجد المشيد من الطين، وعدد كبير من المنازل المجاورة له وسويت بالأرض، وأقام في مكانها المسجد الجديد المشيد من الخرسانة، بمناراته

الاثنتين العاليتين وصفوف أعمدته الجميلة. وسرعان ما تبع ذلك قصر الإمام تركي القديم الذي تم تغييره بمبنى ضخم ذي تصميم على الطراز الأجنبي، ويحتوي على المساكن ومجمع للمحاكم، ومكاتب لحاكم منطقة الرياض، وصالات عامة فسيحة لاستخدام الملك في المناسبات الخاصة بالاحتفالات الرسمية، التي تتقابل عند هذه النقطة، وتفرعت منها الشوارع الحديثة في كل الاتجاهات.

وقد تم هدم المنازل الطينية القديمة الموجودة في أطرافها وإزالتها لكي تفسح المجال لقيام بديل لها من المنازل المشيدة من الطوب أو الخرسانة، كما تم أيضاً هدم أسوار المدينة وإزالتها. وقد ارتفعت قيمة الأراضي في المدينة القديمة والأماكن المجاورة لها بصورة رهيبة، وهناك حالة مشهورة تم فيها انتقال ملكية أحد المباني المطلوب من مالكه إلى المشتري بسعر وصل إلى 7000 ريال للمتر المربع، (أي حوالي 2000 دولار). وفي الواقع كان المبنى التاريخي الوحيد الذي صمد أمام الرغبة في التحديث هو قلعة المصمك الشهيرة. التي تم تشييدها قبل مائة عام بواسطة عبدالله بن فيصل وريث عرش الإمام فيصل، والتي ما زالت تحمل على بوابتها الخشبية القديمة ذلك النصل المكسور الذي يعيد إلى الأذهان انتصار ابن سعود في عام 1902م، وقد كانت تستخدم حتى وقت قريب سجناً.

وقد تم استبدالها الآن بسجن جديد من نوع أكثر حداثة، ويبعد كثيراً خلف المنطقة التي يطلق عليها الآن (الرياض الجديدة)، وبجوار حديقة الحيوان الجديدة التي حلت محل حديقة حيوان الناصرية، لكي تريح حدائق ميادين القصر من الأعداد الضخمة من البشر الذين كانوا يرتادونها لمشاهدة القردة وغيرها من الحيوانات الأخرى، كالأسود والنمور والفهود والأفيال وأفراس البحر وغيرها الخ.

أدى التطور السريع الذي حدث في حركة النقل الجوي والسكك

الحديدية، بغض النظر عن السيارات، إلى جذب الزوار من شتى أنحاء العالم وبأعداد كبيرة تجاوزت حجم الترتيبات التقليدية المخصصة لاستقبال الزوار الحجاج والمعتمرين القادمين إلى الأراضي المقدسة. وبغرض توفير السكن لهم تم إنشاء ما لا يقل عن ثلاثة فنادق ضخمة من الدرجة الأولى في خلال الخمس سنوات الأخيرة، أحدها بجوار محطة سكة الحديد، والاثنان الآخران على طريق المطار الذي شيدت الحكومة عليه صفاً من الأبنية الحديثة الضخمة بغرض استيعاب العديد من الوزارات المختلفة في مجالات الإدارة والمؤسسات العسكرية بما فيها كلية للقادة والأركان ومستشفى عسكري.

أما بالنسبة لصحة المجتمع المدني فقد كان يتم الإشراف عليها خلال ثلاثة مستشفيات رئيسية، ومستشفى للتوليد، إضافة إلى العديد من المنشآت الصغيرة الأخرى. وبالنسبة لشباب المدينة فلم يكن لديهم أدنى شكوى فيما يتعلق بالمدارس بشقيها الديني والدنيوي، في الوقت الذي اكتمل فيه حديثاً تشييد مدرسة داخلية جديدة بالقرب من قصر الناصرية، ومع أنه لم يتم تشغيلها بعد، لكن من المؤكد أنه عندما يتم ذلك فسوف تحتل مكانة مرموقة وسط أفضل الكليات في العالم من ناحية المرافق السكنية والتعليمية.

ويجب ألا يغيب عن بالنا أن نذكر جامعة الملك سعود الجديدة التي سجلت بداية نموذجية ومعقولة في منطقة الرياض الجديدة خلال العام المنصرم، وكذلك متحف الناصرية الذي اكتملت مبانيه لكنه لم يتسلم بعد الأشياء التي يجب عرضها فيه، والتي تم وضعها مؤقتاً في المتحف الموجود بمدينة جدة.

وقد لا يتسع المجال لأكثر من ذلك من مجرد الذكر فيما يتعلق بساحة البلدية الجديدة والمكتبة العامة في الرياض الجديدة، أو فيما يتعلق بميدان سباق الخيل بمدرجه الجديد، أو بالنسبة للعديد من ميادين كرة القدم وغيرها من التسهيلات والمرافق الترويحية، أو الحدائق الغناء التي يجد الناس فيها متنفساً للخروج من المباني الحديثة، والتي تم وضعها في العديد من الأماكن والنقاط

المختارة. وكل ذلك يوضح أن هناك اهتماماً بالغاً من قبل السلطات المحلية، وتحت إشراف الملك نفسه وتوجيهه، فيما يتعلق بتلبية احتياجات المدينة الحديثة ومتطلباتها البالغ عدد سكانها حوالي 300٬000 نسمة، والتي تغطي مساحة تبلغ حوالي مائة كيلومتر مربع، وتمتد في كل الاتجاهات بدءاً من (شبه الجزيرة العربية) السابق والبالغ مائة فدان.

وإنه لمن نافلة القول أن نذكر أن مشكلة الإمداد بالمياه لهذه الرقعة الضخمة لم يتم تجاهلها، فكل هذه المساحة مغطاة بشبكة من الأنابيب التي تقوم بجلب المياه من موقعين في وادي حنيفة. وبالإضافة إلى ذلك فهنالك الآبار الأصلية التي تم تشغيلها حالياً بالمضخات الرافعة، إضافة إلى العديد من الآبار الارتوازية ذات المخزون الجيد من المياه.

وتشير الإحصاءات التقليدية إلى أن الاستهلاك اليومي من المياه في الرياض الجديدة لا يمكن أن يقل عن عشرة ملايين جالون يومياً.

نخلص من هذا إلى أنه مع أن الملك «سعود» نفسه هو الذي مهد الطريق إلى تحديث عاصمته وتطويرها عندما قام بتشييد قصره الصيفي ومنتجعات الناصرية لكن من المحتمل أنه لم يعد تلك المحاولة أكثر من كونها تجربة للتمهيد والتحضير لأشياء أعظم من ذلك. وعلى أية حال لم تمض سنوات كثيرة على ذلك حتى تشجع وأمر بإزالة البنيان بأكمله لإفساح المجال لتشييد قصر جديد يكون أكثر تمشياً مع مكانة الملك التي أنشأت لنفسها مكانة مرموقة في المحافل الدولية.

ويجب الاعتراف بأن أجمل مجموعة من المباني في الرياض الجديدة هي مجمع قصر الناصرية الجديد، كما يشاهد من مكان مرتفع يقع في الطرف الشرقي من حديقته ذات الأشجار الطويلة. وقد كانت المادة المستعملة دائماً هي الخرسانة المائلة إلى اللون الرمادي، والتي كانت تنسجم بسهولة مع خضرة الحدائق، وتعطي انطباعاً بأنها نوع من الحجر الرملي. وفي الوسط كانت تقع

كتلة القباب المسطحة التي تشكل قصر إقامة الملك الذي تحف به الحدائق الغناء، وتزينه البحيرات الاصطناعية والأشجار المزهرة. وعند واجهته اليسرى يقع الديوان الملكي (الذي يضم مكاتب السكرتارية وصالة المقابلات، وصالة الطعام)، وكذلك الجامع الكبير والمتحف، بينما تقع في الواجهة اليمنى قصور نساء البلاط.

وإنه ليحق القول: إن الملك «سعود» حاز بكل أمانة وجدارة لقب (أستاذ العمران)، وما الرياض التي نراها اليوم، وبكل تأكيد، إلا من معالم إنجازاته. حتى لو كان ما لا يزيد على نصف دستة من الأوروبيين قد تشرفوا برؤية المدينة المسورة القديمة الخالدة الذكرى قبل أن أراها، فإن عشرات الآلاف قد حظوا بكل سرور بقياس مدى التطور الذي حدث منذ تلك الأيام الغابرة. وبكل لطف، «لقد تغير النظام القديم، وأفسح المجال للجديد، وإن الله يوفي وعده بعدة وسائل، خشية أن يؤدي تقليد جيد واحد إلى إفساد العالم».

وحتى لو تجاوز التحول الطبيعي لمدينة الرياض أبشع أحلام أولئك الذين كانوا يعرفونها قديماً، فإن ذلك قد اقترن بثورة اجتماعية وروحية كانت مدهشة كثيراً حتى بالنسبة لأولئك الذين يعرفون الرجال الذين أقاموا المملكة العربية السعودية. وإنه لمن البديهي أن المذهب الديني والتعصب الذي كان يميز ذلك الجيل، لا يمكن أن نتوقع له أن يحترق بصورة مبهمة تحت الحرارة البيضاء أثناء استهلاكهم إمدادات الوقود الموجودة بمتناول أيديهم. ولكن يجوز أيضاً أن نوجه سؤالاً عن كيف تم كل ذلك؟ ولماذا؟. وقد طرح هذا السؤال على أحد أفراد الأسرة المالكة المسؤولين، والذي كان يوماً ما من أشدهم تزمتاً. وقد كانت إجابته عنه في الصميم ومقنعة للغاية، إذ قال: «لقد توسعنا». وقد كانت هذه بالضبط هي الكلمة الصحيحة.

لقد تغيرت النظرة الروحية المتسمة بالطهر، والتي كانت سائدة في فترة الوهابيين، والتي انتهت في اليوم الذي قام فيه الأمريكيون باكتشاف النفط

بكميات تجارية، أي قبل مضي عشرين سنة، وحلت محلها نظرة متحررة ومتسامحة في مواجهة المشكلات العالمية ومشكلات المملكة العربية السعودية.

وقد أوردت (الموسوعة البريطانية (مجلد 11/ 1910) تعريفاً للمتحرر على النحو الآتي: «هو الشخص الذي يكون مستعداً ليبدو أكثر تسامحاً وتحرراً في المسائل الخاصة بالانضباط والعقيدة»، مضيفة أن الكلمة تتعلق «بأولئك الذين يمارسون ضغطاً على التعليم العرقي للكنيسة، ويقللون من قيمة العقيدة الأرثوذكسية». ويعرف (قاموس أكسفور دالمختصر Concise oxford Dictionary) كلمة تحرر بأنها (الانعتاق من ضيق الأفق، وحرية التفسير، والاختلافات المقبولة في التصرف أو الرأي وخاصة في المسائل الدينية).

وكلا التعريفين ينطبقان بصورة حرفية على التحول الأخلاقي الذي حدث في المملكة العربية السعودية، وخصوصاً في مدينة الرياض التي تعد عاصمة الوهابية. فمنذ عام 1912م فصاعداً، ولمدة تقارب الثلاثين عاماً، كانت مجمل حياة البلد ونشاطاته تخضع بصورة صارمة للأحكام الشرعية. وعندما تحين أوقات الصلاة يتوقف عن كل عمل، وتغلق بوابات العاصمة في وجه كل حركة الدخول أو الخروج ويتوجه كل القاطنين من الرجال إلى المساجد، ويتم حث المتلكئين على الطريق بواسطة الفضوليين من الناس وأحياناً يتم ذلك بالصورة البدنية بواسطة (المطاوعة) الذين يكون لزاماً عليهم التأكد من أن كل رجل يقوم بتأدية صلاته بالمسجد إنفاذاً لقوله صلى الله عليه وسلم (لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد).

وفي تلك الأيام كان كل شخص يقيم بجوار أحد المساجد! أما اليوم فقد تغير كل ذلك، نعم ما زال المطاوعة موجودين للتأكد من أن أبواب المحال التجارية قد أغلقت أثناء أوقات الصلاة، وأن هناك أعداداً كافية من المساجد لمقابلة الارتفاع المتزايد في عدد السكان، لكن لم تعد هنالك بوابات يتم إغلاقها، كما أن الحشود المتلاطمة صارت أكبر بكثير من أن يستطيع الرعاة

سوقها في الاتجاه الصحيح. وعندما يكون الناس عائدين إلى منازلهم في ساعات الذروة يكون من النادر ألا نلاحظ انطلاق أجهزة التنبيه والصيحات المتلاحقة أثناء حركة السير. وبالإضافة إلى ذلك فقد توقف اعتبار أداء الصلاة في وقتها شيئاً إلزامياً.

ففي تلك الأيام كان من المفترض أن يكون كل شخص منتمياً إلى المذهب الوهابي. وحتى بالنسبة للمسلم الأجنبي كان عليه الالتزام بالمبدأ فيما يتعلق باللبس والمظهر. أما بالنسبة للنصراني فقد كان مطلوباً منه ارتداء الزي العربي في الرياض، وفي الصحراء (كان الملك يقوم عموماً بتوزيع أزياء كاملة في شكل هدايا على الزوار من أية فئة). وقد أدى مشهد ظهور الأمريكان الأوائل الذين قدموا لزيارة المدينة (في مهام تجارية) وهم يرتدون الأردية القصيرة، بصدورهم العارية وقبعاتهم المستقدمة الطويلة (أو رؤوسهم المكشوفة) إلى خلق نوع من الحساسية، بل حتى الاستياء.

وكل هذا قد تغير وصار الواحد يشاهد الآن في الأسواق العديد من الناس، إن لم يكن أغلبهم، وهم يرتدون الزي الأوروبي بالقدر نفسه الذي يشاهد فيه الزي العربي. وإنه ليعد محمدة للأسرة المالكة، ولأبناء الطبقة العليا والوسطى ذوي الأصول الوطنية أنهم ـ باستثناء الخف أو الصندل ـ لم يقوموا على أية حال حتى الآن بالعزوف عن ارتداء الملابس العربية الأصلية والجميلة. صارت الأحذية والعالية الساق منها (البوت) والجوارب يتم ارتداؤها الآن تقريباً بواسطة كل شخص باستثناء الأشخاص التقليديين من كبار السن). كما صار كل أفراد الجيش والشرطة يرتدون الزي الرسمي الأوروبي. مع أنهم لم يتوصلوا بعد إلى إجماع ثابت فيما يتعلق بغطاء الرأس.

وعندما بدأوا أولاً بارتداء الزي الرسمي كان قد تم الإبقاء على غطاء الرأس التقليدي إلى أن يتم اكتشاف أن (البيريه) (أو القبعة) تتسم بكل الصفات المتميزة للعقال، إذا تم وضعها بصورة سليمة على الغترة؛ لكن ذلك كان هو

المحك. وسرعان ما تلت الغترة العقال في نسيانها. مع أن الكوفية ما زال يتم ارتداؤها حتى داخل البيوت وفي المساجد، وحتى داخل قاعات طعام البعثة العسكرية الأمريكية حيث يكون المضيفون كاشفي الرأس، بينما تظل رؤوس الضيوف مغطاة.

أما العقبة الوحيدة التي واجهتهم حتى الآن، فتتمثل في قبعات الرأس الموشاة بالذهب والخاصة بضباط هيئة الأركان والذين يكونون عاملين في خدمة المساجد، إذ يقوم بعضها بخلعها طوال مدة وجوده هناك، بينما يقوم بعضهم الآخر بلفها مع الشارة الموجودة في المقدمة حول العنق، لكنهم جميعاً يرتدونها عندما يجلسون على مائدة الملك. وبطبيعة الحال فإن الضباط الزائرين من الدول المجاورة يقومون بخلع قبعاتهم بالداخل، عندها يواجه الضابط السعودي بمشكلة حساسة لاشك في أنها ستجد طريقها إلى الحل على المدى الطويل.

لقد كان للنفط تأثير مضاعف على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المملكة العربية السعودية. ففي المقام الأول أدى الثراء الناجم عنه إلى خلق نوع من الرغبة في الاستمتاع بوسائل الراحة و(التقدم) على النهج الغربي وكذلك بصورة ملحوظة في أوساط الأمراء والمواطنين الميسورين. فاعتادوا على الأسفار الخارجية وارتداء الملابس الأجنبية ومزاولة وسائل الرفاهية الأجنبية بجميع أنواعها، في الوقت الذي كانت فيه هذه الممارسات محظورة في وطنهم، مع أنه لم يكن هناك عزوف كامل عنها في الحياة الخاصة داخل المنازل، حيث بدأ شبح التحرر الأنثوي، شيئاً فشيئاً وبصورة بطيئة، يغزو المسرح أو المشهد.

وقد شكلت السيارة، بما زودت به من تجهيزات للرحلات البرية، عاملاً مهماً وقوياً باتجاه التطور، ويبدو أنه، وبمرور الزمن، سوف يغدو النهج الغربي في الحياة شيئاً عاماً ومنتشراً في المملكة العربية السعودية، كما هو الحال في شقيقاتها من الدول المجاورة لها.

وفي المقام الثاني قام النفط بجذب أعداد ضخمة من المهاجرين من تلك البلدان المجاورة، لدرجة أن التركيبة السكانية للمدن قد تغيرت كثيراً رغم كل الاعتبارات. فقد يكون هؤلاء النازحون من طبقة الموظفين والعمال الباحثين عن عمل، أو من فئة التجار وعمال المتجر الباحثين عن المكاسب السهلة، أو من أرباب الصناعة المهتمين بالعمل في فرص الإنشاء أو تطوير المصانع. وفوق كل هذا كان هناك مجموعة من معلمي المدارس والخبراء الفنيين من كل الأنواع، الذين كانوا يمارسون تأثيراً قوياً نحو طرح النهج الغربي أمام الأجيال الصغيرة الناشئة.

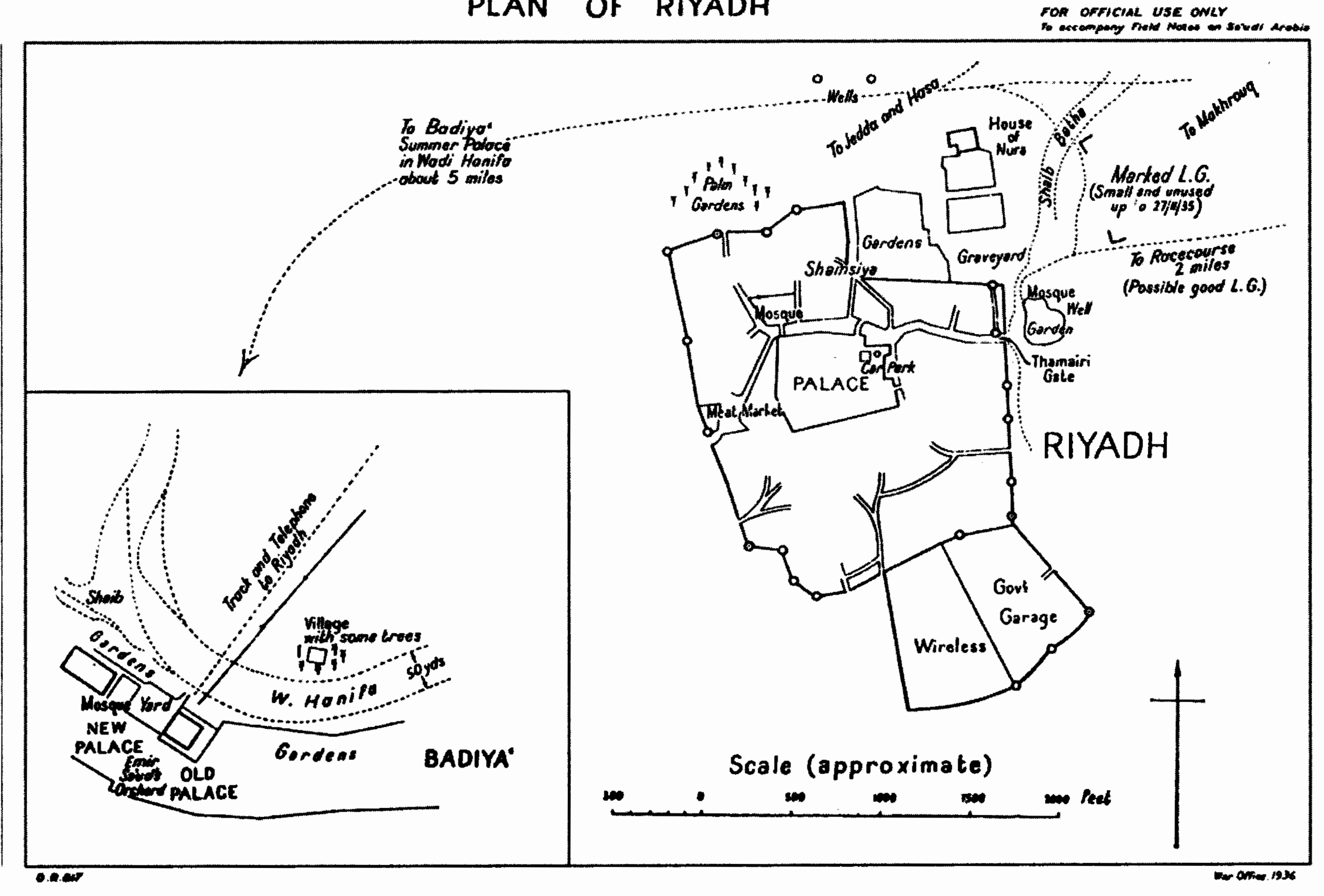
وعدا بعض الاستثناءات، فقد كانوا جميعاً يرتدون الأزياء الأوروبية، بل كانوا بالتأكيد غير مختلفين عن الغربيين في طريقة حياتهم، وكانوا يرتادون المطاعم والمقاهي التي تعد نسبياً من الأشياء الجديدة على الرياض، التي كان الاعتقاد السائد فيها سابقاً أنه من غير اللائق الأكل في الأماكن العامة.

وصارت نساؤهم يتجولن بكل حرية داخل الأسواق، متى ما سنحت لديهن الفرصة للقيام بالتسوق أو الزيارة أو ما شابه ذلك، وهم يرتدين خمار الوجه والأزياء الأكثر شفافية من تلك التي يرتديها نساء البلد. أما بالنسبة للنساء الغربيات، فقد كن في حل تماماً من أي حظر فيما يتعلق بالملابس التي يرتدينها، كما كانت الممرضات القادمات من البلدان المجاورة يلبسن بصورة يقلدن فيها الأوروبيات، وهن سافرات الوجه، ويرتدين تنورة قصيرة مع جوارب من النايلون أو بأرجل عارية، إضافة إلى أحذية أنيقة بكعب عال.

وحتى نوفي هذا الموضوع حقه بالكامل، فإننا سنكون بحاجة إلى مجلد، ولكن ربما كان كل ما ذكرناه كافياً لإلقاء الضوء على مدى عمل التمازج الغربي في التأثير في الغالبية العظمى من بلدة كانت يوماً ما معقلاً رئيسياً لأحد أكثر المذاهب تعصباً في العصور الحديثة. فلم يستطع أي من كوابحها أو أساليب الحظر المتبعة لديها أن تقف في وجه أساليب التطور الحديثة. وحتى مع تلاشي

الأجيال القديمة فإنني أشك كثيراً فيما إذا كان سيبقى بعدها أي أحد يمكن أن يراوده التفكير في أن يذكر بالخير تلك الأيام الخوالي، أم يأسف على الاختفاء أو الزوال الكامل تقريباً لما يمكن أن يوصف دون تردد بأنه واحد من المذاهب الدينية المشهورة.

إنه لمن الغريب أن نفكر على هذا النحو، لكنه لو لم يكن هذا المذهب لما كانت المملكة العربية السعودية قد ولدت على الإطلاق!.


PLAN OF RIYADH
FOR OFFICIAL USE ONLY
To accompany Field Notes on Sa'udi Arabia
To Badiya' Summer Palace in Wadi Hanifa about 5 miles
Wells
To Jedda and Hasa
House of Nura
Shaib Batha
To Makhrouq
Marked L.G. (Small and unused up to 27/8/35)
Palm Gardens
Gardens
Graveyard
Shamsiya
To Racecourse 2 miles (Possible good L.G.)
Mosque
Mosque
Well
Garden
Car Park
PALACE
Thamairi Gate
Meat Market
RIYADH
Govt Garage
Wireless
Scale (approximate)
500 0 500 1000 1500 2000 Feet
Sheib
Track and Telephone to Riyadh
Village with some trees
Gardens
50 yds
W. Hanifa
Mosque Yard
NEW PALACE
Gardens
BADIYA'
Emir Sa'ud's Orchard
OLD PALACE
War Office 1936